

الأساطير العبرية قبل الأسفار

تأليف

الدكتور

محمد عبد المعيد خان



وهي الرسالة التي قدمها لكلية الآداب بالجامعة المصرية ليل الدكتور

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ونصلى على رسوله الكريم

مقدمة

بعد ما التحقت بالجامعة المصرية ، ووافقت لجنة كلية الآداب على تقديم الرسالة لإجازة الدكتوراة ، أمرنى أستاذى الجليل السيد أحمد أمين أن أقدم رسالة فى موضوع الأساطير العربية قبل الإسلام ؛ فنشطت نفسى لهذا الموضوع لما فيه من بحوث علمية تؤدى إلى تمييز ما دخل فى الأحاديث والتاريخ الإسلامى من الأفكار الجاهلية على يد كعب الأخبار ، وعبيد بن شربة ، ووهب بن منبه وغيرهم ؛ ولأنه أيضاً يؤدى إلى توضيح بعض الغموض الملابس للعقلية الجاهلية . فلما أخذت أبحث تحت مراقبة الدكتور طه بك حسين تبنى لى اختلاف واضطراب بين أقوال العلماء ، ورأيت آراء الباحثين الذين سبقونى فى تناول بحوث هذا الموضوع تهجم على العقيدة الإسلامية من كل صوب . وإذ كنت أبحث موضوعى بحثاً علمياً ، فقد تحاشت أن أدخل فى نقاش دينى إلا بقدر ما يتطلبه الإيضاح العلمى . فلا يظن ظان أننى درست هذا البحث تحت شعور دينى من قبل .

ومما لا شك فيه أن البحث دلى إلى عدة نتائج تفيد فى إزالة ارتياب الذين ينتقدون العقيدة الإسلامية ؛ ولذلك أصبحت الرسالة التى كانت محصورة فى الأدب الجاهلى كالتوطئة لدراسة العقيدة الإسلامية . فيجمل بى أن أقدم هنا تلك النتائج التى لم تكتب فى ذات الرسالة لعدم تعلقها بالبحث .

تقد الناقدون العقيدة الإسلامية ، وذهبوا في بحثها مذاهب شتى ، فمنهم من درسها من الناحية الفلسفية التي طرأت عليها والتي دعت إلى دخولها في الإسلام ومقتضيات العصور ، ومنهم من بحثها من الناحية التاريخية التي تحيط بها ؛ فذهب بعض باحثي المدرسة الأخيرة إلى أن فكرة التوحيد وليدة طبيعة البلاد العربية ، وقال بعضهم إنها مأخوذة من اليهود والنصارى ، وقيل أيضاً إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأت بشيء جديد ، بل رفع شأن أحد الآلهة التي كانت تكبر وتعبد من قبل . ولكن البحث في هذه المقالة هادنا إلى أن نقول إن العربي العارى عن التخيل في عصر البداوة لم يتصور ما وراء الطبيعة ، ولم يتخيل حياة بعد الممات ، ويرى القارى ذلك مفصلاً مبيناً في فصل تحليل العقلية العربية من هذه الرسالة ، كما أننا نقول إن طبيعة البلاد لم تدع إلى نشوء فكرة التوحيد في هذه البقعة ، وإنما دعت إلى الدهرية وتقديس الحجر والحيوان كما بينا هذا في الباب الثانى والثالث . وليست فكرة التوحيد موروثه عن اليهود والنصارى كما يظن ، بل هى طبيعة كل نفس ذات شعور ، ويؤيد ذلك روايات اليهود والنصارى التي اتفقت على أن إبراهيم كان يبحث عن الخالق الحقيقى منذ حداثة سنه ، والعربى البدوى أيضاً لم يعبد مظاهر الطبيعة في مبدأ الأمر عبادة الفرس للنور والظلام ، ولم يقم تماثيل السدنة وشيوخ القبائل لعبادة الهنود للبراهمة والملوك (انظر نظرية بدء الوثنية) ، حتى إذا تسلطت عليه الوثنية البابلية ظهرت ميوله الطبيعية فى الدهرية والوثنية ، فأصبح الدهر وصفاته من ميزات جميع الآلهة البابلية التي كانت تعبد فى العرب . ويظهر هذا جلياً من استقسام العربى عند جميع الأصنام . فالعقلية العربية كانت تعتقد من أول نشأتها — مثل أمم الشرق الأخرى — فى كون المادة أزلية وعلة لجميع ما يناله فى الحياة ، ولكن عقلية العربى لم ترتفع إلى تقسيم هذه العلة فى النور والظلام كما تقسمت عند الفرس والبليين . ولما اشتهرت الأديان فى أنحاء شبه جزيرة العرب امتزجت

عقليته بالآراء اليهودية والمسيحية ، وأخذت فكرته تنتقل من عبادة آلهة مادية إلى عبادة آلهة إنسانية (انظر تصور الإله عند العرب) . وكان هذا أقرب إلى فهم العربي الوثني من فهم إله معنوى .

كان العربي يشعر بوجود إله قبلما تطرأ عليه هذه العقائد الجاهلية (انظر الوثنية الخارجية) ، وكذلك الفارسي والهندي والمتوحش في جنوب أفريقيا وأستراليا ، يقر كل هؤلاء بوجود الله ، إذ يعبدون النور والظلام والمظاهر الطبيعية والحيوان الطومى ، معتقدين أنه مظهر من مظاهر العلة الأولى ، فالإقرار بوجود الله طبيعة كل نفس فطرت على الإنسانية ، وكل رجل — سواء أكان متوحشاً أو متحضراً ، وسواء أكان عالماً أو أديباً — إذا تبصر في أمور حياته اليومية ، وإذا راجع تاريخ الأمم ، وإذا حاول أن يعرف كنه ذات الحرارة والنور ، وإذا تحير في تفسير العلة وارتباطها بالمعلول ، وإذا سكر بتأثير نغمات الموسيقى — يشعر بوجود مدبر ذى علم واسع وراء هذا الترتيب والنظم الطبيعية العظيمة ، وهو لا يحتاج في ذلك إلى دليل فلسفى ، وذلك لأن وجوده ليس بشيء مادم حتى يحلل فى معمل العلم ، بل وجوده يشعر به كل قلب ذكى سليم ؛ ولكن ليس كل قلب بسليم وذكى ، ولذلك نحتاج إلى معرفة صفاته التى تدل على وجوده وعظمته ، وهذا الموقف هو الذى تختلف فيه الأديان ، فالمذاهب التى تعتقد بعدة آلهة ما هى إلا رجع بالعقلية إلى عصر البداوة التى كان المتوحش يعبد فيها كل شىء مخيف أو مفيد ، وعلى أنه علة لجميع الكائنات ، وقد يعترض علينا معترض أن عالم الكيمياء والطبيعة والرياضة أيضاً لا يعتقد بالعلة الأولى ، مع أن عقليته ليست فى حالة البداوة ، والواقع أن العالم يفرض عليه أن يفسر أجزاء ارتباط العلة بالمعلول ، ولا يتعب نفسه بتفسير تلك العلة التى دعت إلى ترتيب ذلك الارتباط ، وهو حينما اجتهد فى ذلك لم يجد له مفرعاً إلا أن اخترع مذهباً فلسفياً يستر عجزه عن نفسه المغرورة بقوة العقل ، ولهذا كانت الفلاسفة أثر حائنين ، حالة اليأس أو حالة الترف العقلى .

وأما المذاهب التي تعتقد بوحداية الله ، ولكن تختلف في صفاته فمعظمها اليهودية والنصرانية والإسلام . وقد بينا في فصل تصور الإله أن اليهود كانوا يصفون الله بجميع صفات الإنسان ، حتى وصفوه بالتناسل الإنساني ، وكان إلههم محصوراً في بني إسرائيل ، فأصبح الملك المتعصب الذي يحمي ويدافع عن شعبه ظلم الشعب المصري ، ثم صارت الشمس من شركائه ، وكذلك كانت حالة المسيحية التي نتجت من عقيدة عودة المسيح ، بل زادت المسيحية في الوثنية عبادة الإنسان ؛ وكل هذا يخالف تصور الإله في الإسلام الذي يحمد الله رب العالمين في صلاته كل يوم خمس مرات على الأقل ، وهو وصف لا نجده عند اليهود والنصارى ، فكيف يكون مستعاراً منهما ! ومن هذا يظهر أن عقيدة التوحيد ليست ميراثاً عن اليهود والنصارى ، وإنما جاء محمد (صاعم) بوحداية لم تكن من قبله في عصره .

هذه الرسالة نتيجة دراسة سنتين ، ولكن اتساع الموضوع كان يقتضي مني دراسة سنين عدة ؛ فالحمد لله الذي أعانني على إتمامه في مدة قليلة ، وما كان ذلك في استطاعتي لو لم يكن لي العون من مساعدة أساتذتي الأجلاء مثل الدكتور طه بك حسين ، والأستاذ أحمد أمين الذي كان يرشدني دائماً إلى المصادر القيمة ، ولم تكن استفادتي قليلة من الأساتذة : الدكتور منصور فهمي عميد كلية الآداب السابق ، والأستاذ عبد الحميد العبادي ، والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور شخت ، والدكتور جفري أستاذ اللغة العربية بالجامعة الأمريكية في القاهرة ؛ ويرجع فضل هذا المجهود كله إلى حكومة حيدر آباد التي بعثتني إلى الجامعة المصرية ؛ وإلى هؤلاء الأساتذة الذين كانوا يشجعوني على تحصيل الأدب فضلاً عنهم وكرماً .

فأقدم عظيم امتناني إلى حكومة حيدر آباد وإلى أساتذتي الأجلاء لما لقيته من رقيق الحنان وعظيم العطف مما كان له أجمل الآثار الحميدة في هذه النتيجة التي وصلت إليها ، وإنها لجهود أرجو أن يكون مبروراً مشكوراً ، والسلام .

فهرست تفصیلی لموضوعات الكتاب

صفحة

الباب الأول

في منهج البحث

- الفصل الأول : في مصادر الأساطير ١
تحديد معنى الجاهلية — قلة المصادر — منهج البحث —
ماذا يراد بالأسطورة
الفصل الثاني : في قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير ١٤
العربي ليس بعار من الخيال — خياله تصوري لا إبداعي — الأسطورة
العربية مبنية على تصور لا على خيال — كان للعرب مثل أعلى

الباب الثاني

في المذهب الحيوي

- الفصل الأول : نظرية المذهب الحيوي ٤١
تعريف المذهب الحيوي — آثاره عند الساميين
الفصل الثاني : المذهب الحيوي عند العرب ٤٥
معنى الحياة والروح عند العربي الجاهلي — الأساطير التي تدل على
وجودها عند العرب

الباب الثالث

المذهب الطوتمي

- الفصل الأول : نظرية المذهب الطوتمي ٥٥
تعريف الطهامة — اختلاف العلماء فيما

الفصل الثاني : المذهب الطوتمي عند العرب ٦١

النوعية الطوتمية التي توجد عند العرب — لا أثر للطوتمية الاجتماعية
عند العرب — الطوتمية الدينية أيضاً تختلف عن الأمم الأخرى

الباب الرابع

آلهة العرب

الفصل الأول : نظرية بدء الوثنية في الرواية والدراية ٨٥

اختلاف الرواة في بدءها — لا أثر لعبادة السلف عند العرب ...

الفصل الثاني : الوثنية المحلية في البلاد العربية ٩٧

الوثنية المحلية تمثل العقلية العربية في جميع مظاهر الخيال التصوري

الفصل الثالث : الوثنية الخارجية في البلاد العربية ١٠٧

الوثنية الخارجية صورة تقليدية للوثنية البابلية — تحليل صفات
الأصنام التي عبدت في الحجاز ونجد من ناحية اللغة والروايات ...

الفصل الرابع : تصور الإله عند العرب ١٣٤

الفصل الخامس : الإله في عصر ما قبل التاريخ ١٣٥

كلمة الإله كانت تستعمل قبل التاريخ

الفصل السادس : الإله في عصر التاريخ ١٣٧

تاريخ تصور الإله عند اليهود والنصارى والعرب الجاهلية إلى

ظهور الاسلام

الفصل السابع : أسطورة الخلق والحياة بعد المات ١٤٩

العرب الجاهلي لم يعرف الحياة بعد المات

الباب الاول

منهج البحث

الفصل الأول

مصادر الأساطير

الميثولوجي (علم الأساطير) علم من العلوم الحديثة ، لم يكن معروفاً عند العلماء القدماء كما نعرفه الآن ونبحثه ؛ ودراسة الأساطير حتى عند الأوروبيين الذين يعنون بها عناية تامة لم تصبح دراسة علمية إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، فكيف — والحال هذه — نتوقع من علماء العرب في القرون الوسطى أن يدرسوها درساً علمياً ، وأن يبحثوها بحثاً فلسفياً . والمصادر التي تتعلق بالتاريخ الجاهلي وبآثار الجاهلية وصلت إلينا من الرواة والعلماء الذين كانوا ينقدون الروايات في ضوء العقلية الإسلامية ، أو كانوا يفضلون الآراء اليهودية أو المسيحية على غيرها على الأقل ، فكل ما نقلوه عن العصور الخالية إنما نقلوه متأثرين بالعقيدة الدينية ؛ ومن سوء حظنا أن كثيراً من هذه المصادر أيضاً قد سطت عليها عوادي الأيام ، لذلك يضطرنا البحث أن تتساءل ما هو السبيل إلى استجماع أسطورة عربية ؟ وإذا وصلنا إلى الغاية التي نرومها ، فهل يمكننا أن نستنتج منها نظاماً ميثولوجياً علمياً خاصاً بالأساطير العربية ؟ وإذا كانت متعذراً على العلماء القدماء أن يستكشفوا نظاماً لآلهة العرب ، وأن يعرفوا صفة الأصنام ونطاق أعمالها في دائرتها

الخصوصة ، وأن يضعوا الأوثان في محل مناسب وفق اعتقادهم فيها ، فكيف السبيل إلى أن يستنبط الباحث الحديث من أساطيرهم ما كان متعذراً عليهم أنفسهم ؟ ومع هذه الصعاب فسنحاول ذلك جهدنا ، وههنا نبين المنهج الذي نختاره في بحثنا هذا ، مستعينين بالله ، سائلين التوفيق متوكلين عليه ، فهو نعم المولى ونعم الوكيل .

منهجنا أن نبحث المسائل التي ذكرناها آنفاً من وجهتين : الوجهة الأولى هي مقارنة الأخبار التي دونت في كتب الأدب والتاريخ أو نقشت على الأحجار بعضها ببعض ، ولولا أن كل ما نعرفه تاريخياً أو دينياً عن شبه جزيرة العرب قبل الإسلام إنما هو أخبار ضئيلة ومبعثرة ، وصل إلينا بعضها بواسطة النقوش وبعضها على السنة الرواة الذين كانوا يروون أيام الجاهلية وقصصها قبيل الإسلام ، لاستطعنا أن ندون منها تاريخ بلاد العرب منذ ألف سنة قبل المسيح وما قبلها ؛ والعصر الذي نحن بصدده يراد به أزمان ما قبل ظهور الإسلام ؛ ولكن إذا رجعنا إلى تاريخ الأدب العربي (من غير نظر إلى الأمم السامية الأخرى) في ذلك العصر ، نجد أن جماعة الكتاب تناولوا عصرًا ضيقاً كله فيما بين سنتي ٥٠٠ و ٦٢٢ ^(١) من الميلاد ، أي نحو مائة سنة قبل ظهور الإسلام ، أعنى به فتح مكة ، وهذا يخالف الواقع ، لأن هناك فرقاً كبيراً بين ما قبل الإسلام عامة ، وبين العصر الأدبي الذي حدده الكتاب على وجه خاص ، لذا يجب أن نبدأ بتفسير معنى الجاهلية الذي نعنيه .

اختلف العلماء في تحديد معنى الجاهلية ، وذهب المفسرون إلى أن المراد من الجاهلية في قوله تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » أن الجاهلية كانت فيما بين نوح وإدريس ^(٢) ، وقيل كانت المرأة فيها

(١) Literary history of Arabs, by Nicholson B. XXII

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ٨٣ .

تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها ؛ وروى عن الحكم بن عيينة^(١) أن الجاهلية كانت بين آدم ونوح ، وهي ثمانمائة سنة^(٢) ؛ وقال الكلبي^(٣) : إنما يراد بها عصر ما بين نوح وإبراهيم ، وقيل إنها عبارة عن أيام الفترة ما بين موسى وعيسى عليهما السلام ، وما بين عيسى ومحمد^(٤) (صلعم) ؛ وروى^(٥) عن ابن خالويه أن هذا اللفظ أطلق في الإسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة ؛ ويرى الألوسي في بلوغ الأرب أنها الزمان الذي كثر فيه الجهال . فهذه الأقوال كلها تدل على أنها تطلق على زمن الكفر مطلقاً كما قال أصحاب محمد (صلعم) : كل من عمل السوء فهو جاهل ، ويؤيده قول النبي (صلعم) لأبي ذر : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ، وهذا يؤيد قول المستشرق جولدزيهر^(٦) (Goldziher) الذي أثبت أخيراً أن الجهل ضد الحلم لا ضد العلم ، فالشعراء الجاهليون كانوا يريدون بالجهل التوحش لا عدم المعرفة ، وكذلك المسلمون إذا ذكروا الجاهلية أرادوا بها العادات الوثنية . فليس من المستطاع أن نحدد الجاهلية كعصر معين من عصور التاريخ المعينة ، لأنها ليست زمناً متصلاً بعضه ببعض ، بل هي فترات متقطعة تقع حيناً بعد حين ، وكل فترة منها تكون طائفة وثنية لها شعائرها ولها خصائص عباداتها التي تعبر بها عن شعور الأمة حسب دواعي البيئة ؛ لكن البحث في مثل هذه الدواعي يحتاج إلى مصادر يرجع إليها كما تقتضى طبيعة البحث ، والآثار الباقية عن القرون الخالية — لا في

(١) هكذا في الأصل .

(٢) بلوغ الأرب جزء ١ ص ١٧ .

(٣) بلوغ الأرب ص ١٧ .

(٤) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٨ .

(٥) بلوغ الأرب ص ١٥ .

(٦) Literary history of Arabs by Nicholson P. 30.

أساطير العرب فقط بل في أساطير الساميين بأجمعها — قليلة جدا ؛ ولا تحفظ خرافات أمة من الأمم إلا بعد أن تدون في أدبها وتاريخها ، وأدب الساميين الوثنيين ضئيل جدا ، وكل ما وصل إلينا عن خرافات العرب مع أساطير الساميين إنما هو أخبار متقطعة ومبعثرة ، مثل الأساطير البابلية التي اكتشفت في الألواح السبعة : Kings Seven Tablets of Creation وفي الأدب البابلي (Babylonion Literature) وفي الدين الفلسطيني في ضوء الأرجيولوجي (Religion of Ancient Palistine in the light of Archæology, by Cook.)

ونجد قليلا جدا في نقوش الساميين الشماليين : North semetic inscription : فالأدب القديم للعرب الجاهليين الأولين قد ضاع لانعدام صناعة الكتابة عند العرب . أما الأدب الإلحادي (Heathenism) الذي يوجد في الجاهلية الثانية أو قبيل الإسلام ، والذي ذكره القرآن الكريم ونظمه الشعراء القدماء في قصائدهم ودونته الكتاب ، كالذي يوجد في سيرة ابن هشام وأخبار عبيد بن شربة والإكليل وحياة الحيوان للدميري ، وفي كتب المتأخرين مثل الأغاني ومروج الذهب للمسعودي ، والأزرق والبلخي والقزويني والثعالبي والألوسي ونحو ذلك ، فقد ساعدنا على الوصول إلى معرفة عقلية الجاهلية إلى حد بعيد ولعدم اتقاني اللغة الألمانية استعملت جميع المصادر العربية التي استعملها وهوسن (Welhausen) في كتابه (Rest der Arabicshen Heiduntum) وعرفنا آراءه من مقالة (نولدكه) حول العرب القدماء في دائرة المعارف (الأخلاق والأديان) . ويجدر بي أن أقول إنني أشئت في أن كثيراً من هذه العادات التي ذكرها المؤرخون هي عاداتهم الأصلية ، لأنني أرى أن حكاية عاداتهم لم تنغير على أيدي الرواة فقط بل ولم تبق على بداوتها الطبيعية لتأثرها بالمدينة التي كانت تجاورها ، ذلك إلى أن آراء الصابئة واليهود والنصارى آثرت في فكرة الجاهلية تأثيراً عظيماً ؛ فليس من

الإسراف إذاً أن تقول : إن العربي الجاهلي تحت ضغط الأديان المختلفة أخذ يفسر شعائره القديمة على منهج الصابئة واليهود والنصارى ، ولاتغالي أيضاً إذا قلنا إن كثيراً من هذه الأخبار وصلت إلينا وقد صبغت بصبغة يهودية أو نصرانية ، وقليل منها وصل إلينا على بداوته الأصلية ؛ بل كم من أخبار البداوة التي لم تتفق مع عقلية الكتاب غضّ الكتاب عنها طرفهم ، كالذي يقوله ياقوت : قات وهذه الحكاية كما ترى خارقة للعادات بعيدة عن المعهودات ، ولو لم أجدها في كتب العلماء لما ذكرتها ؛ وجميع أخبار الأمم القديمة مثلها والله أعلم^(١) .

أما المصادر الأخرى التي تتعاق بشبه جزيرة العرب فتتضمن في أقوال المؤرخين اليونانيين ، مثل استرابو وهيرودوت ، أو في نقوش سامية أو يونانية بينت أسماء بعض الأوثان ولكنها لم تدل دلالة ما على سبب عبادة هذا الصنم أو ذاك .

وقصارى القول إن خزائن الكتب القديمة قد ضاعت ، وانقطع الرجاء لسوء الحظ من العثور على تلك الآثار النفيسة ، ودرست النقوش وامحى أثرها إلا نزراراً يسيراً تحت الأطلال . أما التاريخ المدون فما هو إلا جمر ضئيل بين الرمامد ، ولو لم يُذكره الكتاب المسلمون الذين خدموا العلم حبا في كرامة الدين الإسلامي لخبا نوره . ومع هذه المصادر الضئيلة لا مناص عن تحديد الموضوع ، إلا أن موضوعاً غامضاً مثل هذا لا يسمح بالتحديد ، وذلك لأنه ليس لتطور التفكير حد ثابت ، ولا لمعنى الوطن حدود جغرافية . كما أن القومية العربية امتزجت بالقوميات التي جاورتها ، والامتزاج وتبادل الآراء يدعو إلى تطور التفكير وتكوين عقلية الأمة ، فمن الصعب إذاً أن نتوصل بصورة تاريخية إلى الأزمنة التي طرأت فيها عقائد الأديان على الفكرة البدوية في شبه جزيرة العرب كلها . ولهذا يجمل بنا أن نركز الموضوع حول البداوة في الحجاز ، ونجدد لكي نصل إلى معرفة تفكير العربي الجاهلي فيه ؛

حقاً إننا نخسر خسارة كبيرة بهذا النهج ونضطر إلى ترك كثير من أساطير كانت في شبه جزيرة العرب ، ولكن نستطيع أن نعتاض عن هذه الخسارة بالاستعداد من الأساطير التي توجد في فلسطين وبابل واليمن ، وسوف يثبت لنا أن هذا الاستعداد مفيد لتكميل الحلقات المفقودة من سلسلة تفكير العربي الجاهلي . وكذلك يمكننا أن نستفيد مما نقله المستشرقون عن تراجم النقوش الحميرية والنبطية والسبئية ، ثم تقارنها بما دوّن في التوراة والقرآن والأدب الجاهلي الذي ذكرناه سابقاً . إلا أن الأدب الجاهلي كما قلنا قد دوّن في عصر متأخر من العصور الجاهلية ، فذلك لم يُعتبر كثير منه مستنداً تاريخياً عند العلماء . وإذا أرى أن البحث في التفكير الجاهلي يجب أن يبنى أساسه لا على التاريخ بل على الأساطير التي نقلت من جيل إلى جيل فسنحاول أن نستنبطها على قدر الاستطاعة من مقارنة الروايات المختلفة بعضها ببعض ، ويكون الاستنباط مبنياً على تفضيل الشيء الذي يوافق عقلية الأمة العربية وسبجيتها ، ناهجين منهج علماء الأساطير الذين يعتبرون عدة أطوار في تطور التفكير — فتكون المقارنة وحدها هي منهج بحثنا في استنباط الأساطير لأنها أحسن وسيلة لمعرفة المجهول من المعلوم . وأما تحديد مبدأ الفكرة البدوية الجاهلية فهو أصعب من تحديد عصر ظهور الأمة العربية في آسيا الغربية ، وهي صعوبة تاريخية لا تزال تتعب عقول المؤرخين والباحثين عن مدنية القدماء . فكل ما نقول في هذا الصدد قبل اكتشاف المؤرخين يُعدّ رمية من غير رام ؛ ولذلك لا أزعّم أن كل ما أقول في الأسطورة العربية هو الحقيقة الوحيدة ، بل إنما أحاول أن أستنبط من آثارهم الباقية ما إذا كانت العقلية العربية في حالة البداوة وكيف تطورت .

وأما الوجهة الثانية فهي أن نبحت تلك المسائل من ناحية عقلية الأمة العربية وخيالها في ضوء يئتها الطبيعية والاجتماعية ، وذلك لأن البحث في أساطير الأواين

هو بحث في التفكير ومناهج النظر البشري ، فهو يرينا كيف شرع الإنسان الأول يفكر في نفسه ، وفي خالقه وفي الرابطة بينه وبين الموجودات ، معنوية كانت أو مادية . فمن الضروري للتمحيص في تاريخ التفكير العربي الجاهلي أن نطلع على غرائز الأمة العربية وعلى ميولها وتأثرها بالظروف والأحوال ، ولكن ماذا نريد بالتفكير الجاهلي ؟ يجب أن نعرف التفكير الجاهلي أو الأسطورة قبل أن نسير في تقدير الخيال العربي باعتبار قابليته لتوليد الأساطير . ونبدأ بأراء علماء الغرب الذين سبقوا الشرق في استنباط هذا العلم كما تقدموا في درس تطور الخيال من قصص خرافية إلى فلسفة علمية ، وفضلا عن ذلك فإن الظروف الطبيعية التي جعلت الآريين ممتازين عن الساميين حملتهم على توليد أساطير وشعر قصصي بكثرة وافرة وبأنواع مختلفة ، حتى أصبح متعذراً على العلماء أن يحددوا معناها لكثرة تنوعها . وتحديد أى شيء من الأشياء ليس من اليسير ، بل إن تعريف الأساطير التي تشمل بعض مميزات مشتركة بين أمم مختلفة صعب كل الصعوبة ، نظرا لتقاليد وراثية نقلت إليهم من عصر يسمى في الاصطلاح الحديث ، عصر توليد الأساطير (Mythopoeic Age) — وهذا العصر يماثل العصر الحجري والحديدي في تمثيله طوراً من أطوار ارتقاء الفكرة الإنسانية ، أو قل إنه وظيفة من وظائف ذهن الإنسانى لأن هناك أساطير صنعت واخترعت في عصر التاريخ أيضا .

وجملة القول أن العلماء ذهبوا في تعريف الأسطورة مذاهب شتى ، فمنهم من رأى في الأساطير حكايات القدماء في الدين مثل زينوفانيس (Xenophanes)^(١) ورأى سقراط أن صفات الآلهة يمكن اكتشافها من تحليل أسماء الأصنام . ومنهم من ذهب إلى استنباط فلسفة الأولين منها مثل تياجنس (Theagenes)^(٢) الذى سلك

P. 41. Introduction to Mythology, by Lewis Spence (١)

Intr. to Mythology. P. 41. (٢)

مسلك أصحاب التشبيه والمجاز ، فقال مثلاً : إن المقاتلة بين الآلهة ليست بمقاتلة حقيقية بل يعبر بها عن التنارع بين عناصر مختلفة مثل الهواء والماء ، والنار والتراب ، أو بين عواطف نفسانية مثل الحب والعداوة ، ومنهم من قال إن الأسطورة هي التاريخ في صورة متحركة (Euhemerus)^(١) ومن هذا يظهر أن كل واحد من العلماء اختار نوعاً من أنواع الأساطير ولم يضع تعريفاً جامعاً مانعاً للأساطير بأسرها .

وعندما أتى القرن الثامن عشر وبدأ نقد الأساطير بالمعنى الصحيح ونبغ فيمن نبغ من المفكرين ماكس ملر (Max Müller)^(٢) وهربرت سبنسر (Herbert Spencer) — الذي فسر الأساطير في ضوء علم الاجتماع — اهتماماً بالأساطير اهتماماً كبيراً ، وبذلاً المجهود في تحديد معناها فقال ملر : إنها « مرض من أمراض اللغة » (Disease of language)^(٣) فسلك مسلك عالم اللغات ، وجاء بعده سبنسر فما كانت الأسطورة في رأيه إدراكاً مبتدئاً بل إدراكاً خاطئاً^(٤) (Erroneous set of interpretation) . ومن آراء هذين المفكرين نعلم أنهما جعلاً الأساطير صرارة لقراءة نفسية الذين ألفوا الأساطير ، فرأى ملر أن القدماء كانوا عاجزين عن الإعراب عن ضمائرهم بلسان مبين ، وأما سبنسر فإنه حسب الأولين قاصرين عن فهم معنى الموجودات حيث قال إنهم مخطئون في إدراكها ، وذهب كلاهما إلى تحليل نفسية الأولين كما قلنا آنفاً ، ولم يشرحاً نفس الأسطورة شرحاً بليغاً . أما طريقة ملر التي بها يحل الأساطير بمقارنة اللغات فقد بان خطؤها في حل المسائل التي تتعلق بمبدأ الأساطير ، أو التي تتصل بشرح الطبيعة في أساطير الأواين ، أو التي تتعلق بتأويل عناصر علمية من قصص أمم همجية ، فلا ضرورة لنا إذاً في إطالة الكلام فيها ، أو في

Intr. to Mythology. P. 42. (١)

Tntr, to Mythology. P. 47. (٢)

Max Müller " on the Science of thought " P. 7. (٣)

Principles of Sociology, By, Spencer p. 131. (٤)

تقد تعريف سبنسر بأنه إدراك خاطئ^١ ، إذ لا يسوقنا إلى الغاية التي نحن بصدددها ،
ولأنه خاطئاً كان الإدراك أو مصيباً فهو إدراك قوم ذوى نفوس وشعور كغيرهم من
الأمم . ولا إخال هناك فكرة صائبة في عصر من العصور ، ذلك لأنه لو وصلنا إلى
الحقيقة التي نسعى ونبذل الجهود لتحقيقها لما كان التنازع ولا التنافس الذي تقابله
كل آن . فلنأخذ دراسة الأسطورة لا باعتبار أنها إدراك خاطئ أو مصيب ، بل
باعتبار أنها طور من تاريخ أطوار فكرة الإنسان .

وهذه الفكرة التي نهتم بدراستها هي فكرة ذات نطاق واسع وتنوع في المعنى
يستحيل حصره في كلمة بسيطة ، ولذلك اختار علماء عصرنا هذا أغلبية العناصر
في الأساطير وسموها ونسبوها إلى العنصر الذي يغلب عليها ؛ فمنهم من رأى فيها
تغلب عنصر ديني فنسبها إلى الدين ، وجعلها قسماً مهماً في دراسة الأديان . ويرى
رابرتسن سميث (R. Smith) أن الأسطورة ليست جزءاً جوهرياً من دين قديم
لأنها ليست في شريعة الدين ولذلك كانت غير لازمة للمتعبدین^(١) .

Mythology was not essential part of ancient religion for it had
no sacred sanction and no binding force on the worshippers.

ويقول : إن الأسطورة تستنبط من العادات والشعائر لا بالعكس^(٢) .

“ The myth was derived from the ritual, and not The ritual
from the myth.”

وإن العادات والتقاليد مستقرة وثابتة والأسطورة متغيرة ومتحولة . فالأول
واجب ومستلزم ، والثاني يتوقف على تخير المتعبدین . وهو يقول في موقف آخر
إن الأسطورة تفسير أو تأويل لشعائر دينية ، وهي على العموم لا تؤلف إلا بعد
ما تزول أو تضع الفكرة البدائية التي دعت إلى اتخاذ تلك الشعائر أو التقاليد ،

Religion of Semitic By R. Smith P. 17. (١)

« « « « P. 18. (٢)

فالأسطورة عادة لا تشرح كيف بدأت الشعائر والعادات بل إنها بنفسها تحتاج إلى تفسير، ولذلك تفسر بواسطة العادات التي تتعلق بها . ويقابل هذه الآراء رأى : « لويس اسبنس » الذي يرى في الأساطير عنصرا مهما لدين القدماء فيقول وهو ينتقد فكرة « سمث^(١) » إنه بلا ريب على حق فيما يقول من أن الأسطورة ليست بمنزلة العقيدة في الدين القديم ، وإنما حكايات السدنة والناس تتخذ شكل الروايات التي تدور حول الأصنام ، وبعد ما تعلق هذه الحكايات بالدين وبالروح الديني لا نعرف لأي سبب أنكر وجود روح الدين في الأساطير ، وقال سمث : « إن هذه الحكايات ما هي إلا تفسير لشعائر الدين وقواعد متعلقة بانعادات . وإذا سلمنا أن الأساطير تفسر أعمال أعظم الأصنام فقد تكون ذات أهمية كبيرة للأديان ، لأن القصص التي تتعلق بالدين هي الأصل ، ولأن أغلبية الناس يبنون آراءهم في الدين على القصة التي تفسر عقيدتهم فيها . ومجموعة الأساطير التي تدور حول الأوثان تعد على العموم تراث القبائل عند البرابرة ، وهي تحمل محل المصاحف المكتوبة ، وتوحى الغرائز الشعرية والقصصية . فهي تمثل على مسرح قدسي ، وينشدها التلاميذ للحصول على مرتبة قيسية . فالزعم أن الأسطورة لم تكن جزءاً جوهرياً في الدين القديم مبني على خطأ حدث من سوء فهم حكاية مكتوبة أو منقولة متعلقة بالأصنام ، ولذلك نرى أن « ليوس اسبنس » رأى الأسطورة من أهم عناصر الدين القديم ، وقال إن رابرتسن سمث يخطئ مرة أخرى عند ما يقول : « إن التقليد أسبق في الزمن من الأسطورة ، ونحن نشق كل الثقة عند ما نقول إن الأسطورة قد استخرجت من العادات والتقاليد لا العكس » — وهذا صحيح فإن الأسطورة قد تستنبط من العادات كي يفسر ويتأول بها التقليد ؛ لكن يجب ألا تغفل أن الأسطورة التي من هذا

الصنف توجد متأخرة جداً ، فهي طبعاً تولد إذا ما ضاعت الأسطورة التي كانت السبب في تلك العادة أو التقليد . وأما من يقول إن الأسطورة ليست جزءاً جوهرياً من دين قديم ، فنجد لدينا رداً بسيطاً عليه ، وهو أن الاعتقاد لم يكن لازماً لأنه كان طبيعياً وسائداً على الأذهان جميعاً . وخلاصة القول أن رابرتسن سمث غلاتينا أنكر علاقة الدين بالأسطورة ، وأما ليوس اسبنس فلم يكن أقل من أخيه تسرعاً في رده عليه ، فقد دافع عن كون الأسطورة دينية كما هجم عليها « سمث » هجوماً شديداً ، واستدل كلاهما تحت تأثير شعور تسلط عليهما من قبل . أما سمث فقد وجد في لانج (Andrew Lang) وجيلفيس (Jevons) مؤيدين كبيرين لفكرته . فقد قال لانج : إن التصور الديني ينبعث من ذهن الإنسان في حالة التفكير السريع الذي يطرأ على الإنسان ويحمله على عبادة كل شيء مخيف أو مفيد . لكن الفكرة الأسطورية تنشأ من حالة غير التي ذكرناها ، وبعبارة أخرى إنها تنبعث من حالة ذهنية يلعب فيها الوهم والوسواس بالنفوس .

أما الأسطورة كما أرى فإنها — مهما كانت الحالة الذهنية — عبارة عن تفسير علاقة الإنسان بالكائنات ، وهذا التفسير هو آراء الإنسان فيما يشاهد حوله في حالة البداوة ؛ فالأسطورة مصدر أفكار الأواين ، وملهمة الشعر والأدب عند الجاهليين . ونلخص القول فنقول إنها الدين والتاريخ والفلسفة جميعاً عند القدماء ، وهي ليست فكرة مبتدئة أو خاطئة ، بل إنها فكرة بدوية تاريخية صبغت بصبغة الإطناب والمغالاة لإظهار أهمية تلك الحادثة الحقيقية في جيل زال أثره من ذهن الناس ، والناس بالطبع يكبرون الشيء الصغير لإظهار عظمة الجيل السالف ، ولذلك نرى الناس يعظمون الأموات ، وكلما بعد عصر الأموات من الأحياء كبرت عظمتهم وبلغوا درجة الآلهة . وكذلك عند ما تنف على أطلال الأكواخ القديمة نشعر كأنها كانت قصوراً ملكية ، وهكذا شأن الإنسان مع كل ما مضى .

أما الإنسان فهو بالطبع مجبول على أن يسأل ماذا ولماذا؟ والبدوى مفطور على أن يقنع بأي جواب ممكن، وذلك خير عنده من ألا يجد جواباً مطلقاً. فالأسطورة آراء البداوة التي تطرق ذهن الجاهلي وتخطر بباله وتختلج في قلبه لحل معتداتها، فهي قديمة العهد وبعيدة عن الوضوح، ومحتوية على عناصر عدة، إلى حد أنه من المستحيل أن نرى فيها سبباً لكل ناموس من نواميس الحياة الفكرية. لذلك نضطر أن نبحث وندرس تاريخ حياة الذهن الإنساني في تطوره بواسطة عناصر الأساطير التي تظهر لنا أنها غير معقولة، مع أنها كانت معقولة ومسببة لدى مؤلفيها. وقصارى القول أن دراسة الأسطورة عندنا هي دراسة كل ما سطر عند الجاهليين تاريخاً كان أو ديناً، لأنه لم يكن قد وجد في العصر الذي نسميه عصر توليد الأساطير ذلك التفريق الحديث. فالعلم كان محدوداً وممتزجاً بالدين، ولم تكن المعلومات تتجاوز حدود دائرة الضروريات العقلية. ولكنه لا يبعد أن تكون الأسطورة ليست من الفولكلور (Folklore) ولا هي من القصص (Legends). لأن الأسطورة هي صورة من صور الفكر البدائي حينما كانت مسطورة أو مطبوعة في أرواح الأذهان، كما قيل في أسطورة إغريقية^(١) أن غيمز الساقى ابن طروس ملك طروادة، كان بديع الجمال فخرج يوماً للقنص على جبل فنزل زوس (رب الأرباب) بهيئة نسر فاخطفه إلى السماء، فأقام في أولب واتخذ زوس ساقياً له، ولهذا سمي الدلو. وكما قيل في أسطورة عربية « إنما كانت الغميصاء وسهيل مجتمعين، ولذلك يقال للشعريين: «أختا سهيل فأنحدر سهيل فصار يمانيا، وتبعته العبور فعبرت «الجرة» وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت^(٢) » وكذلك من أساطير العرب أن

(١) آلهة اليونان لمحمد حسين حمزة ومحاضرات الدكتور طه حسين بك.

(٢) بلوغ الأرباب الجزء الثاني ص ٢٣٩ — المطبعة الرحمانية سنة ١٩٢٤.

العيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا ميرا وهي نجوم صغار نحو عشرين نجما فهو يتبعها أبدا خاطبا لها ولذلك سموها هذه النجوم القلاص^(١) . ومثل ذلك قصة الزهرة التي تبين أنها كانت امرأة حسناء فصعدت إلى السماء ومسخت كوكبا^(٢) — وقيل أيضا إن الديك كان نديما للغراب ، وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ورهن الديك فخان به فبقى محبوسا وفي هذا يقول أمية بن الصلت :

بآية قام ينطق كل شيء وخان أمانة الديك الغراب^(٣)

و « الفولكلور » يتكون من اعتقاد القدماء الذي لا يزال مستمرا إلى هذه الأيام مثل قصة حاتم في الجود والسخاء ، وقصة السموأل في الوفاء بالعهد . أما القصة (Legend) فهي على العموم الحكاية التي تتعلق بمكان واقعي أو بأشخاص حقيقيين نقلت بالتواتر من جيل إلى جيل ، مثل قصة سد مأرب ، أو قصة الزباء ، وقصة داحس والغبراء ، وقصة حرب البسوس ، فظهر من ذلك أن الأسطورة غير الفولكلور. وغير القصة .

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) البدء والتاريخ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي المجلد الثالث طبع باريز ص ١٤ .

(٣) الحيوان للجاحظ ص ١١٧ المجلد الثاني .

الفصل الثاني

قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير

وقد حان الوقت لنرى هل الأسطورة التي وضعنا معناها آتفا توجد بمعناها السابق عند العرب الجاهليين أم لا ؟ وليس السؤال أماننا هل الأسطورة من حيث هي طور من أطوار ارتقاء التفكير موجودة عند العرب أم لا ؟ أما الأسطورة كما عرفناها فإن وجودها ثابت عند جميع الأمم بلا استثناء وبغير شذوذ ، فلا غرو إذا قلنا إنها توجد عند العرب أيضا ، لكن محل البحث ليس وجود الأساطير عند العرب ، بل هو نظامها ، فهل كان لها نظام عند العرب كالأنظمة الموجودة عند أم أخرى من حيث عملها في حياة البشر ؟ ولو كان كذلك فما كيفيته ومقداره ؟ وقبل أن نشرع في بحث هذه المسألة بالذات يلزمنا أن نرجع إلى نقطة ذكرناها آتفاً ، وهي دراسة الأمة العربية في ضوء بيئتها وعقائدها الوراثة ، وكل ما يحيط بها حتى نصل إلى معرفة نظم الأساطير عندها ، لأن معرفة العرب وتقسيته هي شواهد وأداة داخلية للوصول إلى الغاية التي نحن بصدددها ؛ فالعرب كما قال أوليري تمتاز عن غيرها بمحالتها الاقتصادية والاجتماعية أكثر مما تمتاز بمحدودها الجغرافية ، فإذا أردنا أن نقول شيئاً عن شبه الجزيرة وسكانها ، فينبغي أن تتبع العلماء الجغرافيين القدماء ، الذين يلحقون صحراء مصر الشرقية ، التي ما بين وادي النيل والفرات ، بشبه جزيرة العرب ، فقد قال « أوليري » ^(١) ناقلاً عن بيون : إن حالة آسيا الغربية تدل على أن أهل الوبر كانوا بقايا من أسلاف الأولين ، وأنهم كانوا فئة من الشعب الذي عاق رقيهم المدني ، إذ كانت الشعوب الراقية في أودية

النيل والفرات عثرة في طريق تقدم أهل البادية ، وبين هاتين المدينتين (مدنية النيل ومدنية الفرات) كانت الناحية الشرقية منعزلة فبقيت متأخرة في مراقى الحياة الاجتماعية ، ومن ثم ظلت بعيدة عن الاستفادة من الثقافة التي كانت سائدة في الشعوب المتحضرة في ذلك العصر ، فأنشأت فيها عزلتها هذه الميزات التي نسميها بالميزات السامية . أما كلمة الجنس فيراد بها الطائفة الاجتماعية التي تمتاز بأنها لا تقبل التغير ولا تتأثر بعناصر أجنبية ؛ وذهب المؤرخون في أنساب العرب إلى أن العربي والفينيقي والأشوري والبابلي من أب واحد ، يؤيد ذلك التشابه في تركيب أجسادهم وعاداتهم ، ثم افترق العرب عن إخوانهم فاستدعى ذلك نشوء مميزات مخصوصة ، هذه الميزات هي التي سميت بالسامية ، وهي التي يسميها رابرتسن سمث الخصائص الجنسية (Ethnical characteristic) ، فإذا فرضنا أن العرب أعنى «السامية البادية» هم بقايا الشعوب السالفة المبعثرة والمحصورة ما بين المدينتين البابلية والمصرية ، وإذا سلمنا أن كلتا الثقافتين ترجع إلى مصدر منسوب إلى ما قبل التاريخ ، فينبغي أن تفرض أن الشقاق بينهما وبين أمم أخرى قد وقع في عصر لا نعرف زمانه في تاريخ الإنسان . فالعرب تختلف عن جاورها في بيئتها الاجتماعية والاقتصادية ، وتشبه من حولها من الساميين في عاداتهم الوراثية وعقائدهم الدينية ، وذلك لأن النسل يحتفظ بتراثه القديم مهما اختلف في البيئة كما قال رابرتسن سمث : « وإنما الأمم التي تشعبت من أصل واحد قد تشترك في اتخاذ العقائد والشعائر الوراثية ، دينية كانت أو غير دينية ؛ والدليل على أن العبرانيين ومن جاورهم قد اشتركوا في شعائر دينية يشبه الدليل المستمد من مصادر أخرى ، ويفيد أن أمة إسرائيلية كانت قريبة المأخذ من أمة وثنية في سوريا وشبه جزيرة العرب . وعند ما نطالع تاريخ فكرة دينية أو تقاليدها عند العبرانيين سوف نجد أنها تراثاً مشتركاً بين أمم متقاربة ، ولا نحسبها إراثاً مخصوصاً

لبنى إسرائيل^(١) ، فيثبت من هذا أن عرب البادية هما اختلفوا في البيئة عن الحضرة فلم قابلية وصلاحيه للتأثر بمن جاورهم من الأمم السامية في العقائد ، والواقع أن أهل الوبر تأثروا بأهل الشمال أكثر مما تأثروا بأهل الجنوب الذين كانوا متصلين بالحبشة ، وسنبينها في باب « آلهة العرب » إن شاء الله . صحيح أن وحدة الجنس (Unity of type or homogeneity) بين العرب ومن حولهم ليست وحدة تامة ، ولذلك لا يصح أن نأخذ موضوع الدرس شخصا من قبائل عرب البادية ونطبقه على البابليين ، لأن بيئة العرب تختلف عن بيئة البابليين . ولهذا فطبيعة الوثنية العربية تقتضى أن تنقسم إلى الوثنية المحلية التي نشأت في تلك البيئة البادية ، والوثنية الخارجية السامية التي أثرت في السامية البادية ، وذلك لأننا مع الاختلاف الأساسى فى الوثنية العربية ، نجد عند العرب والبابليين آراء متقاربة وأفكاراً متشابهة وتقاليده متحدة ؛ وعلى سبيل التمثيل نأخذ عقيدة الخلق والبعث وقصة الطوفان ، فنجدها عند البابليين كما نجدها عند العرب ، مع اختلاف بسيط ، وسوف نرى تأثير أفكار الأمم المجاورة ، والبابلية على الخصوص ، فى مكة والحجاز نفسها ، فأكثر هذه الأساطير نجده سائداً فى بادية العرب نفسها ، وهذا يدل على أن الأفكار والعقائد البابلية كانت سائدة حتى عند أهل البادية . وإذا قيل من أين أخذوا هذه الأفكار ، وقد كانت العرب فى جاهليتها أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أى اتصال ، ولا تتصل بمن حولها فى مادة ، ولا تقتبس منهم أدباً ولا تهذيباً ، قلت قد ردّ قبلى أستاذى الجليل أحمد أمين فقال : « الحق أن هذه الفكرة خاطئة ، وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً ، وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم

المتحضرة لذلك العهد نظرا لموقعها الجغرافي ولحالتها الاجتماعية^(١) ، وهذا يهدينا إلى أن نقول بأن العرب كانت متحدة في مبادئ العقائد من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانوا يختلفون عمن جاورهم من الأمم في الحالة الاجتماعية والاقتصادية . وهذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف البيئة في المدنية والبداءة .

أما البيئة الطبيعية في الحجاز ونجد فهي عبارة عن بادية ورمل لا نهاية لها وعن صحراء وعساء لا نبات فيها . فالأشجار فيها نادرة ، والآبار والعيون فيها قليلة وساكن مثل هذه البادية مضطر إلى أن يلجأ إلى مغارات في جبال سوداء ليحتمى بها من حرارة الشمس ، ويشد رحله بالليل تحت السماء الزرقاء وراء هداية النجوم للبحث عن بقاع خصبة ومراع خضراء .

وأما المدن فما هي إلا نزل له عارضى ، وتنصب القبائل الخيام التي تشبه مغاور الجبال في أودية خصبة حسب فصول السنة ، فيرحل بعد اختتام الفصل إلى واد آخر . فالبيئة التي لا تسمح الظروف فيها بالزراعة والصناعة تجعل الإنسان يعتمد ويتكل على هبات القدرة في اكتساب المعيشة ، فهو يتربص المطر ويتربص أوامر القضاء والقدر ، وهذا التوكل على القدر عند العرب يتسع إلى حد أنه يبدأ يستقسم بالأزلام في الأمور جميعاً ، أما الاجتهاد المستمر في اكتساب المعيشة فإنها تجعل الإنسان لا يترك الأمور إلى الغد ، فهو لا يذهب إلى التفكير فيما بعد الطبيعة ، بل يستفيد من كل شيء سهل الحصول لديه ، والعربي لا يميل إلى أمور معقدة ، بل يطالب ذهنه صفاء ووضوحاً مثل صفاء الرمال الواسعة الممتدة ، لا حائل بينه وبين ما بعد مجال النظر . وهكذا شأن العربي الذي يحب الفكرة البسيطة ، والكلام الصريح والبيان الواضح ؛ لكن الاستفادة من أشياء بسيطة تحتاج إلى دقة النظر وشدة النشاط ، وهذه الميزة تحمل الإنسان

(١) فجر الإسلام ص ١٣ الجزء الأول (الطبعة الثانية) .

على أن يتعمق في رؤية كل شيء بسيطاً كان أو معقداً ، فهو ينظر إلى كل ما يشاهد بنظرة دقيقة ، وهذه الدقة في الرؤية تزيد قوة بصره ، كما تزيد في قوة الذاكرة ، وسوف نرى أن العربي في الواقع يمتاز بميزات خاصة له في القوة الباصرة والقوة الذاكرة ، وأجل مظهر من مظاهر البيئة الطبيعية في نفسية العربي حبه لوصف الرئيات وصفاً دقيقاً ، هذا واضطرابه في قضاء الحاجات الضرورية وهي عزيزة المثال في بادية العرب يجعله مادياً محضاً ، ولذلك نرى أن غرائز العربي تميل إلى المادة أكثر من ميلها إلى المعاني والروح فهو يمتاز عن الآريين في قوة المشاهدة ، وناهيك بقصة نزار التي تكاد تكون تراث العربي وعلامة الأمة العربية ، وهي أنه « لما حضرت نزارا الوفاة أوصى بنيه وهم أربعة : إياد ، ربيعة ، أنمار ، مضر ، وقال لهم اذهبوا إلى القلنس بن عمرو أسقف نجران فهو حكيم العرب وقاضيه ، فلما مات نزار بن معد ساروا إليه ^(١) » فمروا على أثر رجل فقال إياد : هذا أثر رجل أعور ، وقال مضر : بل أبتر ، وقال ربيعة : بل أزور ، وقال أنمار : بل شرود ، فلقبهم صاحب البعير فقال : هل حسستم من بعيرى حسا ؟ فقال له إياد : هل هو أعور ؟ قال نعم ، وقال له مضر : هل هو أبتر ؟ قال نعم ، وقال له ربيعة : هل هو أزور ؟ قال نعم ، قال له أنمار : هل هو شرود ؟ قال نعم ، ثم قال لهم فآين البعير ؟ قالوا ما رأينا لك بعيراً ، فتعلق بهم ؛ ثم أتوا أسقف نجران وهو متعلق بهم ، فقال : أيها الحكماء إن بعيرى قد ضل ، وهؤلاء عرضوا على صفتهم وأبوا أن يدفعوه إليّ ، فقال لهم أسقف نجران : ادفعوا إلى الرجل بعيره إذ أحطتم به علما ، قالوا له : مررنا على أثر بعير فعرفنا صفتة بالأثر ، قال لهم : كيف وصفتم ؟ قال له إياد : مررت بأثر بعير أعور ، وقال له مضر : مررت بأثر رجل أبتر ، وقال له ربيعة : مررت بأثر رجل أزور ، وقال له أنمار : مررت بأثر رجل

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير ص ٢١٤ و ٢١٥ .

شروء : وقال لإياد : ما دليلك أنه أعور ؟ قال رأيته يركب أثر عينه الصحيحة وعليها رعيه . قال لمضر : وما دليلك أنه أتر ؟ قال : رأيته بعره يقع مجتمعاً ، ولو كان له ذنب لفرق به ووقع منتشراً . وقال لربيعة : من أين علمت أنه أزور ؟ قال رأيته أثر خفي يديه يركب بعضهما بعضاً ، وربما خالف بينهما ، فعلت أنه أزور . ثم قال لأنمار : من أين علمت أنه شروء ؟ قال : رأيته أثره ربما زاغ عن طريقه ، فعلت أنه يروغ عن طريقه ، يعترض له فيروغ ، لو كان غير شروء لأصبناه ثابتاً في مكانه .

وهذه الملكة في دقة الرؤية استمرت وتركت في شكل يشبه العلم مثل العرافة والقيافة ، ولكن لا يظن ظان أن العرافة علاقة بالكهانة ، لأن الكهانة والرهبانية عند الصابئة واليهود غير العرافة عند العرب ، وهي تختلف عن الكهانة والرهبانية اختلافاً أساسياً ، وذلك لأن العرافة طور من تطور أوهام العرب ، بدأت من الطيرة والتفاؤل والتشاؤم الذي كان سائداً عند العرب ، فلا تعالى إذا قلنا إنها كانت جزءاً جوهرياً لحياتهم اليومية ، حتى لنرى العربي إذا أراد السفر يتفأل من السائح والبارح ، وقد حكى أن الإسكندر تملك بعض البلاد فدخل هيكلًا فوجد فيه امرأة تنسج ثوبا فقالت : أيها الملك أعطيت ملكا ذا طول وعرض ، ثم دخل عليها وإلى بلدها ، فقالت له إن الإسكندر سيعزلك ، فغضب فقالت لا تغضب ، إن النفوس تعلم أموراً بعلامات ، وإن الإسكندر لما دخل كنت أدير طول الثوب وعرضه ، وأنت لما دخلت فرغت منه وأردت قطعه ^(١) » فارتقت العرافة من مبادئ الأوهام واتصلت بدقة الرؤية التي هي الفطرة الثانية عند العرب ، واتخذت شكل قيافة الأثر وقيافة البشر ، واشتهرت في هذه القيافة عدة قبائل ، إلى حد أنه كان في

(١) مدنية العرب لمحمد رشدي ص ١٩ مطبعة السعادة سنة ١٩١١ م .

استطاعة الرجل منها أن يقول إن الرجل والمرأة التي مرت بهذا الطريق من قبيلة كذا وكذا ويرى أثرها على الأرض ويقول إنها متزوجة أو غير متزوجة وإنها بكر أو ثيب ، وهكذا تطورت العرافة فاتصلت بالأصنام ، وأخذ العربي يستقسم بالأزلام ، وأصبح الكهان من الأطباء كما قال عمرو :

فقلت لعراف اليمامة داوئي فإنك إن داويتني لطيب^(١)
واختصار القول أنها تختلف عن الكهانة ، وذلك أن نظرية الكهانة والرهبانية نظرية روحانية خالصة ، ونظرية العرافة نظرية مادية محضة لأنها مبنية على الاستنباط من المحسوسات والعلامات ، ونزوع العربي بالطبع يميل إلى المادة والدهرية كما حكاها الله تعالى عن عقيدة الجاهليين : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . وما زالت هذه الفكرة تقطع مراحل التطور حتى ظهرت الأديان في جميع النواحي ، وكان تقودها متراعى الأطراف ، فتلبد جو العربي الصافي ، وتغيرت البيئة الاجتماعية في شبه الجزيرة ، فظهرت الصابئة وانتشرت آراؤهم في عبادة الكواكب تقرباً إلى الله ، وانتشر اليهود والنصارى في نجران وحول المدينة ، وانتشرت الآراء المجوسية في وادي الفرات ، فلم تسمح نظريات الأديان للفكرة العربية البدوية أن تتطور إلى طور فاسفي ، فاضطرت عقلية العربي أمام هذه النظريات القائمة ، أن تتخذ منهجاً تقليدياً بدل المنهج الذي كانت تسلكه من قبل ؛ وأكبر مظهر لهذا التحول هو أسلوب عيشة الجاهلي قبيل الإسلام ، فهو (كما قيل) مع كونه وثنياً كان يعيش عيشة دينية مثل اليهود والنصارى والصابئة ، فهو يحج ويعتمر بدل أن يقيم الأسواق القديمة مثل عكاظ وذى الحجاز ، ويعتقد شبه عقائد اليهود ، ويعبد الأوثان كعبادة الصابئين للكواكب ، لكن غرائزه الطبيعية كانت تسوقه إلى دين الآباء

(١) الشعر والشعراء ص ٣٩٦ .

القدماء ، فكان يخضع لسلطان الطبيعة أكثر من خضوعه لدين اليهود والنصارى ، فهو يعبد الحجر والشجر ، ويتخذ إله الصابئة واليهود ، ويصفه بالصفات التي كان أسلافه الأولون يصفون الأوثان بها ، فهو يميل إلى نظريات الصابئة واليهود تارة ويستهزئ بها تارة أخرى ، لأنه دهري المزاج ، والدين عنده أساطير الأولين ، والبعث حديث خرافة ، والأنبياء عنده من المجانين .

كان لدعاية اليهود والنصارى يد فعالة في تحويل تقاليد البداوة إلى تقاليد دينية راقية ، وطبيعي في مثل هذه البيئة التي كانت سائدة في شبه الجزيرة قبل الإسلام أن تكون عقلية العربي في حالة من الاضطراب والفوضى ، لكنه ليس من المستطاع أن نبحت عن عصر انتقال فكرة البداوة إلى الفكرة الدينية ، وذلك لبعد عصر الانتقال عن عصر التاريخ .

في هذه البيئة نشأ العربي الجاهلي العصبي المزاج ، السريع الغضب ، الذي يحب الحرية والمساواة ، والذي يثور على كل سلطة ، ويهيج من كل شيء تافه ، يمتاز بذلاقة اللسان وحضور البديهة واتزان الطبع ، ويفضل الإيجاز على الإطناب ، فهو يضرب المثل في جوامع الكلم ، ويتصور الأشياء كما هي ، ولا يسمح لخياله أن يتجاوز حدود الحقائق فلا يلونها بألوان قصصية ، وإنما كما يقول أستاذي الجليل أحمد أمين : « يطوف حول الشيء فيقع منه على درر مختلفة الأنواع لا ينظمها عقد^(١) » . ولهذا لا نجد عند العرب الشعر القصصي أو شعر الملاحم ، إلا أن هذا لا يمنع من وجود خيال رائع وتشبيهات بديعة عندهم ، وكذلك رد الأستاذ على الذين ينكرون هذا أيضاً مثل أويرى القائل بأن العربي ضعيف الخيال وجامد العواطف ، فقال : « أما ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر في شعر العرب لا يرى فيه أثراً للشعر القصصي ولا التمثيلي ، ولا يرى الملاحم

الطويلة التي تشيد بذكر مفاخر الأمة كإلياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسي .
ثم هم في عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب في تأليف الروايات ونحو ذلك ،
ونحن مع اعتقادنا قصور العرب في هذا النوع من القول نرى أن هذا الضرب
أحد مظاهر الخيال ، لا مظهر الخيال كله . فالفخر والحماسة والوصف والتشبيه
والمجاز ، كل هذا ونحوه من مظاهر الخيال ، والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة
استرعت الأنظار ، وإن كان الابتكار فيه قليلا ، كذلك ما ملئ به الشعر العربي
من الغزل وبكاء الأطلال والديار وذكرى الأيام والحوادث ، وما وصف به
شعوره ووجدانه ، وصور به التياحه وهيامه لا يمكن أن يصدر عن عواطف
جامدة^(١) . فقد علمنا أن العربي له خيال وعواطف لكن ما عرفنا مقدار هذا
الخيال وهل هو مثل خيال اليونان أو الهند ؟

يجب أن نعرف نوع الخيال عند العرب لنعلم أنه يستطيع أن يولد الأسطورة ،
لأن الخيال مفتاح أبواب الخرافة ، وأساس توليد الأساطير . ولكن قبل هذا
ما الخيال في حد ذاته ؟ قيل إن الخيال ملكة من ملكات العقل بها تمثل أشياء
غائبة كأنها ماثلة حقا لشعورنا ومشاعرنا ، فقد تستطيع وأنت على مكتبك أن
تتخيل مجلس أنس وطرب في ليلة من ليالى الصيف الصافية في ضوء القمر ، ثم
يمكنك أن تصور من ذكرياتك ومشاهداتك السابقة صورة جديدة لا عهد لك
بها من قبل ، فذلك ما يسميه الناس على جهة التعميم بالخيال . ولهذه القوة العقلية
وظائف ثلاث : (١) تصور المستقبل . (٢) تفهم المجهول من المعلوم . (٣) الخروج
من نطاق الحقيقة المألوفة واختراع ما هو أشبه بالحق وأقرب إلى الباطل .
أما تصور المستقبل فبمساعدة الماضي تحت تأثير الرغبة والأمل . فنتخيل الشيء
المرغوب فيه ونسلك في الحال سلوكك من أدركه فعلا ؛ فالفتاة الراغبة في الزواج

(١) فجر الاسلام ص ٤٣ .

يلعب في مخيلتها دور العروس في حالة الزفاف ، وعناصر هذا التصور مأخوذة بلا ريب من الذاكرة ، ولكن الرغبة هي الحركة لها ، ثم نضطر إلى تصور المستقبل تحت ضغط الرؤية والتبصر ، فننظر إلى ماضينا أولاً ثم إلى امتداده وهو المستقبل ، على أننا لا نستطيع أن نتصور المستقبل إلا بمعلومات وتجارب سابقة تبعثها الرغبة . وأما تصور ما رآه أو سمعه غيرنا ولم نره ولم نسمع به نحن ، فستعين على تعرفه بالتخيل ، فالحاكي يستعين بذاكرته على إعادة الماضى ، والسامع يستعين بمخيلته على تصور ما يلقي عليه ، فهو يحاول أن يرى بفكرته ما رآه الآخر رأى العين ، بأن يستعرض في ذهنه منظراً مماثلاً لذلك الذى يصفه محدثه بما يثيره في نفسه ما يسمعه ، وبما عنده من التجارب ، فإذا كان المنظر غريباً وجديداً على السامع تعذر عليه تصويره ؛ وعلى قوة هذا التصور ووضوحه في الذهن يتوقف الفهم والإدراك . وأما تصور الشيء الموهوم مما لا وجود له في الخارج أو تصور ما كان قريباً من الواقع كل القرب أو بعيداً عنه كل البعد ، أو تصور ما يشبه الحق كل الشبه وهو باطل فيتجلى ذلك في الأحلام ، فأننا كثيراً ما نرى في المنام أموراً باطلة يستحيل وقوعها ، فالحالم يخادع نفسه ويتوهم أنه يتمتع فعلاً بما يحلم به . ويخطئ بعض الناس في التعبير بكلمتي « التصور والتخيل » فيخلطون بينهما ، والحقيقة خلاف هذا ، إنما التصور كما أجمع على تعريفه علماء النفس ، هو استرجاع الصور السابقة التي أثرت في الحواس من دون أن يكون لها وجود في عالم الحس يمثل الحالة التي وجدت عليها من قبل ، وليس التصور بمقصود على المرئيات وإنما هناك أنواع كثيرة منه بحسب الحواس ، فهناك تصور بصرى وسمعى وشمى ولمسى وحركى فإذا استرجعت صورة صديق لك فهذا التصور بصرى ، وإن استرجعت صوت مطرب فهذا التصور سمعى . أما إذا استرجعت الصورة التي سبق أن أثرت في حواسك وأضفت إليها شيئاً من عندك ، أو استرجعت عدة صور كونت منها صورة

واحدة جديدة لم تؤثر في حواسك من قبل فهذا تخيل ، فاذا تخيلت صورة لها رأس إنسان وجسم حيوان أو بالعكس فهذا تخيل . ولا يفوتنا هنا أن نقول إن التصور أساس التخيل . وخلاصة هذا القول كما رأى ولیم جيمس أن الخيال ينقسم إلى قسمين : « خيال تصوري (Reproductive Imagination) و خيال اختراعى أو إبداعى (Productive Imagination)^(١) .

فالأمة العربية في الجاهلية تمتاز بخیال تصوري ، فهي تتصور الأشياء وتسترجع التجارب ، وبعبارة أخرى إن العربى يأخذ شيئاً من المراتب وشيئاً من المحسوسات ثم يركب منهما صورة ليست بمجددة ، بل كما يشاهدها كل ذى عينين في عالم المراتب ، فيصفها في الحالة الذهنية المخصوصة لتلك الظروف ولا يضيف شيئاً من عنده ، وذلك لأن عقلية محدودة في استرجاع الصور السابقة ، وليس لديه تجارب المدن والحضارة حتى يخلق منها شيئاً جديداً . ونكتفى هنا بإيراد بعض أمثلة التشبيهات من المعلقة فقط لأن بحث التشبيهات العربية ومقارنتها بتشبيهات الأمم الأخرى موضوع مستقل في حد ذاته ، وليس لدينا فرصة وافية لبسط ذلك الموضوع المتسع في مقدمة وجيزة مثل هذه . وسنرى في تشبيهات أصحاب المعلقة أنهم يشبهون الناقة والفرس مثلاً بحيوان مثلهما قال امرؤ القيس :

له أبطالا ظلي وساقا نعاما وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(٢)
وقال طرفة بن العبد :

كأن حدوج المالكية غدوة خلایا سفین بالنواصف من دد
وشبهها عنتره بالظلم :

فكانما أقص الإكام عشية بقریب بین المنسمين مصلم^(٣)

(١) Principles of Psychology By, william James P. 41

(٢) القصائد العشر للتبريزى ص ٤٣ المطبعة السلفية بمصر .

(٣) شرح القصائد العشر للتبريزى ص ١٨٤ .

وشبهها الحارث بن حلزة بالنعامة فقال :

بزفوف كأنها هقلة أم رثال دويّة سقفاء

ويشبهها النابغة الذبياني بالثور الوحشي من أرض وجرة :

فعدّ عما ترى إذ لا ارتجاع له وانم القُتود على عيرانة أُجد^(١)

من وحش وجرة موشيّ أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

وقال عبيد بن الأبرص :

عيرانة مؤجد فقارها كأن حاركها كئيب^(٢)

كأنها من حمير عانات جَوْنٌ بصفحته ندوب

وهكذا شبهها لبيد بأتان يتبعها حمار ثم ببقرة مسبوعة ، وقال امرؤ القيس في

تشبيه الفرس : « كجمود صخر حطه السيل من عل » ومثل ذلك التشبيهات القديمة

كتشبيهم الناقة في الضخامة بالقصر والقنطرة ، وفي الصلابة بالعملة والصخرة ، وفي

السرعة بالجندلة والأثفية ، وسرعة الفرس بنجاء الظبي ، والسيد بالقمر ، وهو فحل

الإبل ، والوجه الحسن بالشمس والقمر ، وأهداج النساء بالسفن ، والنجوم بالمصاييح ،

والنساء ببيض النعام ؛ وقد ذكر أن الأخطل دخل على عبد الملك بن مروان فقال

يا أمير المؤمنين قد امتدحتك فقال إن كنت تشبني بالحية والأسد فلا حاجة لي

بشعر^(٣) ؛ وهذه التشبيهات تختلف عن تشبيهات العجم الذين يشبهون حصاناً

بالبرق ويسمونه : « برق زقتار » و « فلك سير » (الذي يمشى على السماء)

وبالهواء ويسمونه صبارقتار (الذي يمشى كهبوب الرياح) والشاعر الهندي شبه

مشية البقر بمشية الخمرور بسكرة الشباب المغرور^(٤) ، وشبه ذهاب ابن إلى أمه في

(١) شرح القصائد العشر ص ٢٩٢ .

(٢) شرح القصائد العشر ص ٣٠٨ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٠١ .

(٤) تاريخ أدب أردو .

قصيدة قصصية بمرور خيال وقال : « ذهب إلى أمه ساكتاً كديب الخيال »
 وقال شاعر من الهنود القدماء وهو يخاطب مركب النجم « تعال مع مركبك
 الذى هو أسرع من طروق الخيال » (Come Ye with that chariot swifter
 than Thought)^(١) ومثل ذلك شبه إقبال « سراج الليل » بالأشعة التى
 دبت فيها روح الحياة^(٢) . انظر إلى ابتكار تصور الشاعر الذى يرى حياة
 وروحاً فى أشعة الشمس وكذلك شبه « وردسورث » فيقويه « بالصوت المتجول » :
 (Wandering Voice)^(٣) ، وشبه شيلي (Shelly) قنبرة (Sky lark) بالفرح مجرداً
 عن المادة^(٤) ، وشبه ابن المعتز الحصان فقال :

أسرع من ماء إلى تصويب ومن رجوع لحظة المريب^(٥)
 وقال فيه أيضاً على بن الجهم :

لا تراه العيون إلا خيالا وهو مثل الخيال فى الانطواء^(٦)
 وهكذا نجد فرقا كبيرا بين تشبيهات القدماء والشعراء المتأخرين .

وهاك مثالا آخر ، يشبه امرؤ القيس بحر الأرام بحب الفلفل ، والشحم بهذاب
 الدمقس المقتل ، ويصف جيد عنزة بأنه كجيد الريم ، وفرع شعرها كقنو النخلة
 المتعشك ، وكشحها كجديل مخصر ، وساقها « كأنبوب السقى المذلل » وهكذا
 يشبه ليبد آثار الديار (الطلول) بالوشم ، ويشبه عنزة الرماح بأشطان البعير ؛ وكثير
 من شعراء الجاهلية يصفون صقل السيف بالماء كما قال عمرو بن كلثوم :
 كأن متونهن متون غدر تصفقا الرياح إذا جرينا

(١) Vedic Hymns, by E. J. Thomas P. 31

(٢) بانك دار (جرس القافلة) لإقبال .

(٣) Babylonian Literature " The second dream of early ride ,

Golden treasury P. 242

(٤) ديوان ابن المعتز ص ٢٩ .

(٦) التشبيهات المشرقية ص ٢٤ مخطوطة .

وهكذا شأن الشعراء المقلدين للآداب الجاهلية ، بينما الشاعر الباطلي يصف
تلاؤ السيف في مبارزة ازدوبار بلهيب النار ولمعان الشهب . فإذا أمعنا النظر
في تلك التشبيهات قلنا إن هذه كلها ليست جديدة بأن تسمى بالتشبيهات لأنها
مقارنة أعضاء الإنسان وأعماله بأعضاء الحيوان وأفعاله ، أو قل ما هي إلا موازنة
شيء بشيء آخر ، وقس على ذلك التشبيهات التالية ، قال امرؤ القيس :

كأن ثيرا في أفانين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل
ثم هو يقارن البرق بتحريك اليدين فيقول :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلعج اليدين في حثي مكلل
وهكذا يقول أوس :

يا من لبرق أيت الليل أرقبه في عارض كضى الصبح لمّاح
دان مسف فوق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنها بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح
ونزيد على ذلك ما قال أستاذي الدكتور طه بك حسين في يتيين آخرين
وهما تشبيهان ماديان محسوسان بالبصر أيضاً^(١) وهذا يؤيد ما قلناه آنفاً .

انظر إلى الشاعر المتأخر يصف السماء :

كأن سماءنا والشهب فيها وأصغرها لأكبرها مزاحم
بساط زمرد نثرت عليه دنانير تخالطها دراهم

وقال أبو هلال العسكري في الشمس :

والشمس واضحة الجبين كأنها وجه المليحة في الخمار الأزرق

هاك ابن طباطبا يقلد عقلية الجاهلية ويئة البدو فيقول :

كأن سهيلاً والنجوم أمامه يعارضها—راع أمام قطيع^(٢)

(١) الأدب الجاهلي ص ٢٩١ .

(٢) نهاية الأرب للنويري .

وقال الشريف الرضى فى الفرقدين :

كأنهما إلفان قال كلاهما لشخص أخيه : قل فإني سامع^(١)

وقال امرؤ القيس فى طول الليل :

فيا لك من ليل كأن نجومه
كأن الثريا علقت فى مصامها
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصباح وما إلا صباح منك بأمثل

بينما قال بشار الأعجمى الأصل :

أضل النهار المستنير طريقه
أم الدهر ليل كله ليس يبرح

وقال ابن الأحنف :

أيها الراقدون حولي أعينوا
نى على الليل حسبة واتجارا

حدثوني عن النهار حديثا
أو صفوه فقد نسيت النهارا^(٢)

وكذلك يتجلى الخيال العربى حينما تقارن بين شاعرية أبى تمام العربى وشاعرية ابن الرومى كما وضّحها الدكتور طه حسين بك فى كتابه «من حديث الشعر والنثر» فالتشبيهات العربية الجاهلية مع كونها منظراً بديعاً وصوراً جميلة لا تدل على ابتكار فى التخيل ، فأين هذه التشبيهات من تشبيهات المتحضرين ، نعم لا يليق بنا أن نتوقع ذلك من العربى الذى كانت عقليته محصورة بين مشاهدات ومحسوسات بسيطة فى العصر الذى نحن بصددده ، إلا أنه لا يجب أن تؤمن بأنهم أرقى الأمم السامية ، فهذا يهديننا إلى أن الفكرة العربية فى ذلك الزمان لم تتجاوز المراتبات ، ولذلك فإن العربى البدوى لم يتصور المعانى فى حالة تجردها عن علاقة مادية ، نعم لقد وصف عمرو بن كلثوم الحرب بالطاحون ، وشبهها زهير بن أبى سلمى بالناقة اللقاح فقال :

(١) نهاية الأرب للنويرى .

(٢) أمالي ج ١ ص ١٠٢ .

فتعركم عرك الرحي بثقالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتيم
ولئن كان هذا يخالف ما قلنا آنفاً لأنه يدل على أنهم تصوروا المعاني المجردة
في صورة خيالية ، إلا أنه ليس كذلك في الحقيقة ، بل الأمر كما قال التبريزي
في شرح ذلك البيت ^(١) « إنما شبه الحرب بالناقة لأنه جعل ما يحلب منها من
الدماء بمنزلة ما يحلب من الناقة من اللبن ، وقيل شبه الحرب بالناقة إذا حملت ثم
أرضعت ثم فطمت » ، وفي هذا دلائل على أنهم لم يجردوا الحرب في التصورات
المذكورة عن الحقائق التي تنتج منها في عالم المشاهدات ، خلاف ما نرى في
التصور الروماني والإغريقي ، فإنهم صوروا الحرب والشجاعة والحب والجمال
وأشبه ذلك في معان مجردة ، ومع أنهم نحتوها على صورة الإنسان ، غير أن هذه
الآلهة أصبحت المثل الأعلى ، إلى حد لا نجد نظيرها في العالم الخارجي .

أما العرب فقد وصفوا أعمال أصحاب المروءة والشجاعة والوفاء ، وضربوا
الأمثال فقالوا « أوفى من السموءل » ، وذموا البخل ومدحوا السخاء ، وأقاموا له
تمثالا حيا في حاتم الطائي من غير مغالة خيالية ؛ نعم كانت العرب تغلو
في وصف الأبطال مثل وصفهم للعدائين (الشنفرى وسليك بن السلكة
وتأبط شرا) ، ووصفهم لزرقاء اليمامة التي كانت تنظر إلى مسيرة ثلاثة أيام ،
لكنهم لم يتجاوزوا بهم حدود البشرية ولم يرتقوا بهم إلى درجة الآلهة مثل
أبطال اليونان في « الإلياذة » وأبطال العجم في « الشاهنامة » وأبطال الهند في
« مهابهارت » ؛ فالعرب لم يخلقوا أشخاصا خرافية مثل قنطرة الجبال (جمع
قنطورس وهو مخلوق خرافي كان يأوى إلى أكم تساليا وأجمها وزعموا أنه له شطر
إنسان قائما على شطر حصان) ^(٢) ، ولا مثل الإنسان الخرافي ذي الألف عين

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١١٣ .

(٢) الإلياذة تعريب سليمان البستاني ص ٢٢٥ .

الذى نراه فى رجويدا (Rigveda) ، ولم يمثّلوا خلة من الخلال الفاضلة مجردة عن جميع العلاقات المادية ، وشاعرهم كما رأينا فيما ذكرنا من التشبيهات لا يشبه ، بل يقارن المراثيات بالمراثيات ويلونها بعواطفه ووجدانه ، وينظمها فى قلائد ألفاظ شعرية ، وخيالهم خلاف خيال الآريين الذين يفضلون الرمز والإيهام على الصراحة والوضوح ، وقد قيل إن كهان بريطانيا وإرلندا مثل آلهة الهنود القدماء يحبون غوامض الأمور وخفيها^(١) ، هذا ما يتعلق بالتصور البصرى عند العرب . أما التصور السمعى فهو لا يقل شأنًا عن التصور البصرى عندهم ، فقد حكى عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام مر على بلبل فوق شجرة يحرك ذنبه ورأسه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : يقول « أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء »^(٢) ، ومر بهدهد فأخبر أنه يقول : « إذا نزل القضاء عمى البصر » أو « من لا يرحم لا يرحم » ، وصاحت طيطوى عنده فأخبر أنها تقول : « كل حى ميت وكل جديد بال » والورشان يقول : « لدوا للموت وابنوا للخراب » والطاووس يقول : « كما تدين تدان » ، وإذا صاححت العقاب تقول : « البعد عن الناس الراحة » ، والقطاة تقول : « من سكت سلم » ، والنسر يقول : « يا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت » . وهذه الأقوال كلها كانت مضرب الأمثال عند العرب ، فتعلم العربى هذه التجارب والنظريات فى الحياة التى كانت مليئة بالفقر واليأس ، ولقد دعت حياته الاجتماعية أن يلجأ إلى حمى أصحاب الشجاعة والكرم ، أو إلى حمى الأصنام ، أو إلى حمى المروءة والخلال الفاضلة التى كانت أساس نظم الحياة الاجتماعية فى شبه جزيرة العرب ، ولعل العربى أخذ هذه النظريات بمساعدة

The growth of Literature. by Chadwich. Vol. II , Early Indian (١)
Literature P. 589 »

(٢) حياة الحيوان ج ١ ص ٨١ .

تصوره السمعى الذى طبقه على تغريد الطيور حسب وزن الأصوات ، نظرا لصعودها ونزولها . أما الدليل الذى يؤيد القول بأن العرب كانت تأخذ الأقوال وتطبقها على أصوات الطيور ، فما قيل من أن العرب تصف الفاختة بالكذب لأن صوتها عندهم « هذا أوان الرطب » ، وتقول ذلك والنخل لم يطلع ولذلك يقال : « أكذب من فاختة^(١) » . وهذا النوع من الخيال يظهر جليا فى الأساطير العربية .

أما ما يتعلق بفكرة غير مادية مثل فكرة الجن ، فسوف نرى أن العربى لا يستطيع أن يتخيل صورة الجن كما يتخيلها اليونان والهند والفرس ، فصورة الجن عند غير العرب من الأمم رهيبة مخيفة ، ومبينة على مغالاة بعيدة عن القياس ، وتركيب أجسادها على خلاف المعهود ، وأعمالها خارقة للعادات ، لكن العرب توهموا الجن دائما فى صورة الحيوان ، مثل الحية والنعام والقنفذ والأرنب وسنبين هذا فى « باب المذهب الطومى » . وكذلك سنرى أن العقلية العربية القديمة تتصور الروح فى شكل الهامة ، والعمر الطويل فى شكل النسر ، والشجاعة فى صورة الأسد ، والأمانة فى شكل الكلب ، والصبر فى الحمار ، والمكر والدهاء فى الثعلب ونحو ذلك . ولذلك نرى أنه من الصعب على العقلية العربية أن تفهم العقائد التى تتعلق بما بعد الطبيعة ، لأنها لم تستعد بتجاربها السابقة لإدراك العقائد التى تفسرها الأديان كما قال الشاعر :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو

وكذلك العربى لا يفكر من أين برز العالم وإلى أين يصير ؟ كما يسأل الآرى القديم مخاطباً هبوب الرياح « أين ولد الريح ومن أين يجىء ؟ » ، وكما يسأل الأرض والسماء أى منهما الأول وأى هو الآخر^(٢) . لأنه يعرف ويعتقد فى

(١) حياة الحيوان للدميرى ج ١ ص ١٥٨ .

(٢) Vedic Hymns P. 54 By. Thomas

بعض القوى الطبيعية منذ عهد قديم ، كما علمته طبيعة مناخ البلاد نفسها أن الأشياء تخرج من القوة إلى الفعل ، وأن العالم لم يزل ولا يزال ، ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله كما قال السجاح بن سباع الضبي الجاهلي :

لقد طوفت في الآفاق حتى بليت وقد أنى لى لو أريد^(١)
وأفنانى ولا يفنى نهار وليل كلما يمضى يعود
وشهر مستهل بعد شهر وحول بعده حول جديد
ومفقود عزيز الفقد تأتى منيته ومأمول وايد

هذه هي عقيدة المعطلين وأشهرهم قبيلة قريش ، وما كان من نفوذ قريش على القبائل الأخرى لا يحتاج لمزيد تعريف . فالزمان عند العرب شيء أزلى يدبر نظام العالم ويتوقف عليه يسر الإنسان وعسره ، وهو الذى يقدر أعمار الإنسان ، ويمنى له ما يتمنى ، وهو الحى والميت كما قالوا « ما هى إلهياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، فهو الذى يصيب الإنسان بالأمراض والنكبات والبؤس . فسعادة الإنسان وشقاوته تتوقفان على الدهر ؛ ولذلك ترى الشعراء الجاهليين مغرمين بالتغنى بأعمال الدهر وما يتعلق به فيصفونه بالراعى الذى لا يخطئ فى الرماية ، وبالساقى الذى يسقى الناس كأس المنية . قيل إن عمرو بن قبيصة أنشأ هذه الأبيات لما تقدمت به السن ، وهرمه الدهر :

رمتى بنات الدهر من حيث لا أرى فما بال من يرمى وليس برام^(٢)
فلو أن ما أرمى بنبل رميتها ولكنما أرمى بغير سهام
وأفنى ولا أفنى من الدهر ليلة وما يُفن ما أفنيت سلك نظامى
وكذلك قال شاعر آخر :

أسلموا للمنون عبد يغوث وبعض الكهول حولاً يراها

(١) ديوان الحماسة ج ١ ص ٤٢٤ — مطبعة محمد علي بمصر .

(٢) الأدب الجاهلي ص ٢٢٥ .

بعد ألف سقوا المنية صرفا فأصاب في ذاك سعد منهاها
وهكذا كانوا يخلطون معنى الدهر بالقضاء والقدر .

لقد تطورت هذه العقيدة في الدهر والقدر والزمان إلى حد أن العربي خضع
لسلطان « مناة وعوض » الذي قيل إنه صنم في معنى الدهر وقال فيه الشاعر :

ولولا نبل عوض في حظباتي وأوصالي^(١)

لطاعت صدور الخيل طعناً ليس بالآلى

وإذا صحت هذه الرواية فقد صار الدهر إلهاً من آلهة العرب ، وقد عبد
الهذايون عوضاً ، قال رشيد الغنوى :

حلفت بمأثرات حول عَوْضٍ وأنصاب تركز لدى السَّعير^(٢)

وانتشرت عبادة مناة في أنحاء شبه الجزيرة ، وسوف نبينها في فصل « آلهة
العرب » إن شاء الله .

ولكن لا يظن ظان أن ألوهية الدهر هذه قد تجاوزت علاقاتها المادية فقد
قال داوسن : « عند ما ننظر إلى الأسماء الإلهية نرى أول ما عرف الساميون من
صفات الله هي قدرته ، ونراهم أبطالاً في معرفة الصفات الأخرى خاصة ثبوتها وعدم
تغيرها ، وبعبارة أخرى أبطالاً في فهم الإله كمثال أعلى لما فوق البشرية »^(٣) .

وخلاصة القول أني أذهب إلى أن العربي قليل الابتكار ، وأن عقليته خالية
من الخيال الاختراعى ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يكون له مثل أعلى في العاديات
وفي تصور المحسوسات ؟ وقد كان للعرب نظرة خاصة في الحياة كما قال مجمع
ابن هلال الجاهلي :

(١) ديوان الحماسة ص ٢١٤ ج ١ .

(٢) لسان (مور) .

(٣) Davidson's, Theology of old Testament

وخيل كأسراب القطا قد وزعتها لها سَبَل فيه المنية تلمع^(١)
 شهدت وغنم قد هويت ولذة أتيت وماذا العيش إلا التمتع
 وقال طرفة بن العبد :

ألا أيهذا اللأئى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟
 فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي^(٢)
 فكان للعربي غاية من الحياة يسعى وراءها . وإذا لم يضع الكلمة التي تعبر
 عن المثل الأعلى ، فذلك لأنه لم يحتاج إلى ذلك . لأن غاية الحياة كانت واحدة
 مشتركة وسائدة في جميع أفراد الأمة بدون أن يشعر إلى أين يسعى — وكذلك
 الحال مع أكثر الناس في يومنا هذا — ولو لم تكن للحياة غاية عند العرب فماذا
 أراد امرؤ القيس إذ قال :

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلا من المال
 ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي^(٣)
 فهذه الغاية أو المثل الأعلى كان عند العرب هو « الخلود » ، وقد كان
 في مبدأ الأمر خلوداً أو بقاء ماديا ، وأقوى شاهد على ذلك نجده في الأساطير
 العربية ، فقد قيل : كان الملك ذو القرنين يفكر ويحلم أنه يملك الأرض ومن
 عليها ، وقيل إنه كان يسخر الشمس والقمر حتى وصل مع الخضر إلى عين الحياة
 ليشرب الماء الذي يعطيه حياة أبدية لكنه منع ذلك^(٤) . وكذلك قيل أن
 لقمان بن عاد اختار طول عمره فكان من دعائه حين سأل طول العمر :

(١) ديوان الحماسة ص ٣٠٣ ج ١ .

(٢) معلقة طرفة بن العبد .

(٣) عمدة الأديب للأستاذ سليم الجندى ص ٩٠ المجلد الأول في امرؤ القيس طبع دمشق

(٤) كتاب التيجان ص ٩١

اللهم يارب البحار الخضر والأرض ذات النبت بعد القطر
أسألك عمراً فوق كل عمر

فنودي أن قد أعطيت ما سألت ، ولا سبيل إلى الخلود فاختر إن شئت
بقاء سبع بعرات من ظبيات عفر في جبل وعمر لا يمساها قطر ، وإن شئت بقاء
سبعة أنسر سحر ، كلما هلك نسر أعقب نسر ، فكان اختياره بقاء النسور^(١) ؛
فبينما لقمان يدور ذات يوم في جبل أبي قبيس بمكة سمع مناديا لا يرى شخصه
وهو يقول : « يالقمان بن عاد المغرور ببقاء النسور ، اطلع رأس ثبير ليس يعدو قدرك
المقدور » ، فطلع رأس ثبير ، فاذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيها ،
فاختار لقمان أحد الفرخين ، ثم عقد في رجله سيرا ليعرفه ، وسماه المصون ، ثم قال
المصون الخالص المكنون^(٢) من بيت المصون ومحذور السنون وعبط العيون
والباقي بعد الحصون إلى آخر الدهر الخؤون ؛ فكان لا يغفل عن إطعامه حتى
تم طائراً مسخراً له يدعو به باسمه للمأكل فيجيبه ، حتى أدركه الكبر فضعف ،
فلم يطق أن يطير ، فبينما لقمان يطعمه لحماً قد بضعه له إذ غصّ بيضعة منه فخر ميتاً ،
فجزع لذلك جزعاً شديداً ، وقال هذا بلاء ، ووقعت الواقعة مثل ذلك مع كل
نسر مثله : عوض^(٣) ، وخاف^(٤) ، ومغيب^(٥) ، وميسرة^(٦) ، وأنسا^(٧) ؛ إلى
أن جاء دور السابع وهو لبد^(٨) .

(وشرح عبيد أن اللبد في لغة العرب معنى الدهر) ، فلما دنا أجل لقمان
وبلغ الميقات أقبل ذلك النسر « لبد » حتى وقع على شجرة الرطب فدعاه ليطعمه
من لحم قد بضعه ، فأراد « لبد » أن ينهض فلم يطق أن يطير ، فأقبل لقمان فزعاً

(١) التيجان أخبار عبيد بن شربة ص ٣٥٦ طبع حيدر آباد .

(٢) » » » ص ٣٥٧ » » »

(٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) أسماء النسور

حتى قام تحته وقال : انهض لبد أنت الأبد لا تقطع بي الأمد ، فلم يطق لبد أن
ينهض وتفسخ ريشه ، فمال ذلك لقمان هولا عظيما ، ووقع موته منه موقعا جسيما ،
فأنشأ لقمان يبكي نفسه ، ثم سقط لبد ميتا ، فجاء لقمان ينهض فاضطربت عروق
ظهره وخر ميتا .

هذه الأسطورة تمثل غاية الحياة عند العرب القدماء ، وهكذا كان
الشعراء يتعظون بموت إخوانهم وينعون على الدهر خيائه ويكون على القدر
المحتوم مهما طال العمر والبقاء ، وباب القبور في كتاب الإكليل^(١) ملآن
بأساطير من هذا القبيل ، فيروى أنهم حفروا في الحيرة فوجدوا بيتا ، فدخلوه
فأصابوا فيه رجلا على سرير من رخام عليه حلتان ، وإذا عند رأسه كتاب
« أنا عبد المسيح بن بقبيله »

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المنى بُلغ المزيـد
وكأخت الأمور وكأختني فلم أخلع لميعتها برودي
وكدت أنال في الشرف الثريا ولكن لا سبيل إلى الخلود

وقد ألف أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني كتابا مستقلا في
أخبار المعمرين الذين عاشوا أو قيل إنهم عاشوا مائة وعشرين فما فوق .
هذا ما اتجه إليه المفكرون ، لكننا نجد شكلا آخر من هذا الخلود في
التقاليد العربية ، وأقوى برهان عليه أن الأمة العربية تهتم تمام الاهتمام بأن
تجعل المروءة والثار والعصبية شعارا قوميا احتفاظا بتقاليدهم القديمة ، والذي أملى
على العرب اتخاذ هذه الخلال هو شعور سام برغبتهم في إحياء الذكرى وبقاء
تنظيم الحياة الاجتماعية ، فقصوا الأقاويص حول الأشخاص البارزين في أوصاف
المروءة مثل حاتم الطائي في الجود والكرم ، وعلقة وتأبط شرا والشنفري

(١) الإكليل ص ١٧٧ ، ١٧٨

في الشجاعة ، والسموأل في الأمانة والوفاء وغير ذلك ، ووضعوا أمثالا لموعظة الناس كما قيل « كان الرجل في الجاهلية إذا غدر وأخفر الذمة جعل له تمثال من طين ونصب وقيل « ألا إن فلاناً قد غدر » ، وقد قال الشاعر : « ولنجعلن لظالم تمثالا » .

أما شأن العربي في ربط العلة بالمعلول فإنه مهما كان ضعيف التعليل في ربط المادة بالروح والروحانية ، لم يكن ضعيفاً في الاستنتاج من المحسوسات . أما اعتقاده أن دم الرئيس يشفى الكلب ، وأن سبب المرض روح شرير حل فيه ، فيداويه بما يطرد هذه الأرواح ، أو أنه إذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقدار وعظام الموتى ، إلى كثير من أمثال ذلك ، فهذا كله لا يدل على عدم المقدرة على التعليل ، بل هو من أوهام الناس ، وأمثال هذه الأوهام نجدها في أم قوية التعليل كالليونان والرومان ، فالمرض الذي يسمونه عين الملك (Scrofula = King's eye) كان الفرنج يعالجونه بريق الملك . وكثير من الأمم في دور البداوة كانوا يحسبون أن سبب الجنون حلول روح شرير في جسد الإنسان ، وكانوا يداؤونه بالضغط على صدر الجنون وعلى بطنه كي يخرج الروح الشرير من جسده ، وكم من الناس في يومنا هذا يتوهمون أنه إذا اختلجت عينه فسوف يحدث كذا وكذا . وقصارى القول أن العربي كما قلت آنفاً لا يفكر في أين ينتهى العالم ، بل إنه يرى العظماء الذين كانوا ذوى قوة وبأس وحكمة وفراصة لم تتركهم في قيد الحياة رماية الدهر والمنية ، ويرى أن كل شيء من عالم المراتيات يزول ويفنى . فقد لعبت طسم وجديس وعاد وشمود دورهم على مسرح الحياة وزالوا ، وتغلب عليهم الفناء ولحقوا بآبائهم الأولين إلا الليل والنهار والشمس والقمر والدهر والفلك ، فكل أولئك على حالة واحدة غير متغيرة منذ الأزل ، ولا تزال مستمرة على ذلك إلى الآن ، فهو يفكر إذا ما فكر

فى ما هو الموت ؟ وكيف نحترز من يديه الباطشتين ؟ ولأى سبب يبقى النهار والليل أبديين وليس لنا البقاء ؟ ثم هو يستنتج من الحوادث اليومية استنتاجاً استقرائياً ينتهى به إلى أن الموت يتوقف على القضاء والقدر ، وما الليل والنهار إلا الدهر كما قال الغطّش الضبي :

أقول وقد فاضت بعينى عبرة أرى الدهر يبقى والأخلاء تذهب
أخلاقى لو غير الحمام أصابكم^(١) عتبت ولكن ما على الدهر معتب
فما هو السبيل إلى إرضاء هذا الدهر وتحصيل البقاء ؟ لهذا هو يختار شعاراً مخصوصاً لحياته البدوية فى شكل اجتماعى .

تبين لنا أن العربى كان يخضع لسلطان المروءة أكثر من خضوعه لسلطان الدين والآلهة ، وكان يتنافس فى الأخذ بالثأر ، وكان يستमित عصبية حبا للكرامة والحرية والمساواة والأخوة ؛ فلما تطور التفكير العربى البدوى ، وتأثر بعقائد الأديان المجاورة ، نبغ المفكرون وجعلوا ينقدون أفكار البداوة ، وأخذوا يفسرون عبادة الأوثان حسب دواعى العصور ، فأصبح تصورهم أشبه بالتخيل . قلت سابقاً إن العربى قليل الابتكار ، ولم أقل إنه عار من الخيال دائماً ، إلا أن التصور أو الخيال التصورى هو الغالب والمسلط على حياته العقلية ؛ وهذا الخيال التصورى يولد الأسطورة التصورية ، كما يصنع الخيال الأساطير الاختراعية ؛ ولذلك نرى العربى يمثل نجوم السماء بما يشاهده فى البیداء ، وينقل شكل حياته الاجتماعية البدوية على رقعة السماء ، غير أنه لا يخترع الأساطير مثل اليونان ؛ والعربى ليس بمقصود على هذا الحد من التصور ، بل نجده يربط الصور بعضها ببعض كربط حياته اليومية ، فهو يرى فى السماء صورة الراعى وكلبه^(٢) ، ويتصور

(١) لسان (عتب)

(٢) الصور والكواكب مخطوط دار الكتب المصرية

على الفلك صورة الناقة والرجل الذى بيده غول^(١) وكلبه ؛ ذلك إلى أنه ينظم هذه الصور فى قلادة واحدة ، كأنما يريد أن يؤلف من تلك الأجزاء المبعثرة قصة تمثل حياته البدوية ، فهو يتصور مع الراعى وكلبه قفزات الظباء ووثبة الأسد وحوض الماء (يشبه الشعراء الحجر بالنهر) ، فإذا وثب الأسد وقفزت الظباء لجأ الراعى مع غنمه وكلبه إلى الحوض . وكذلك يرى أن النوء العواء كأنها خمسة أكلب تعوى خلف الأسد ؛ ثم هو يضع قصة تصويرية من نجوم الدبران والعيوق ، ومن سهيل والغميصاء ؛ كما أنه يذكر أسطورة عن الزهرة ، فهذه كلها صور رائعة ، وشبه خيال قصصى .

وإذا رجعنا إلى بعض أبيات وأساطير الأدب الجاهلى رأينا الصنم يغوث يشترك فى حروب العرب القبلية ، كما نرى العربى يستغيث ويستنصر « هبل » فى غزوة أحد ؛ ثم هو يشخص الأشجار والأحجار ، ويبدل الإنسان فى الحجر والشجر والنجوم ، ويرى الحياة فى الشمس والقمر ، لكنه لم يلبس المعانى جسما ولم يجعل لها شخصا كما بينا سابقاً . نعم لقد تصور العربى الجوع فى صورة الحية ، لكن تصوره حية تولد وتنشأ فى بطن الإنسان وسماه « صفراً » فهو لم يتمثل الجوع فى صورة الحية بل رأى الجوع نفسه هو ثعبان البطن .

وبعد : فقد رأينا جميع أشكال الأسطورة عند العرب فهل يستطيع أحد بعدئذ أن يرتاب فى قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير ؟

وخلاصة القول أن العربى محدود الخيال من ناحية التخيل الاختراعى ، وواسع الخيال من ناحية التخيل التصورى ، فهو ممتاز فى التخيل التصورى ومجيد له ، والأسطورة تتولد من الخيال التصورى كما تتولد من التخيل الاختراعى ؛ وهو يتصور الأشياء ولا يبتدع القصص حولها ، ويقم الأوثان فى هيئة يرسمها ويلونها .

(١) الصور والكواكب مخطوط دار الكتب المصرية

بالوان التصوير لا بألوان التخيل . فإذا أردنا أن نبحث أسطورة عربية فعلينا أن نراها في خيال تصويرى أكثر مما نراها في خيال اختراعى . وإذا أردنا أن نبحث عن العربى الذى ينسج الأسطورة فيجب أن نرى ذلك العربى حين يلعب بالألفاظ ، وهكذا شأنه فى يومنا هذا كما قال أستاذى الجليل الدكتور طه بك حسين : « فالبدوى الآن فصيح كالبدوى القديم حلو الحديث محب للسمر والقصص إذا اطمأن واستراح ، خطيب بليغ إذا كان بينه وبين غيره خصومة أو جدال^(١) » .

هذا وقد مرّ تفكير الأمة العربية بأطوار يسميها علماء الميثولوجيا بطور ما قبل المذهب الحيوى (Preanimism) ثم طور المذهب الحيوى (Animism) ثم طور المذهب الطوتى (Totemism) ثم تعدد الآلهة (Polytheism) ويتبعه فكرة وحدة الإله (Monotheism) ولم نختَر هذه الأطوار لأنها أطوار مستقرة ولازمة لكل أمة ، بل اخترناها لأنها تمهد السبيل لتوزيع الأساطير المتنوعة فى أبواب وفق نوعية الأسطورة ، ثم تسهل الطريق للوصول من المعلوم إلى المجهول . وسنبداً بالمذهب الحيوى لأننا بينا كثيراً من طور ما قبل المذهب الحيوى فى تحليل عقلية العرب وتقسيته .

(١) الحياة الأدبية فى جزيرة العرب ص ٢٥ .

الباب الثاني

المذهب الحيوى

الفصل الأول

نظرية المذهب الحيوى

الضرورة أم الاختراع ، وما الضرورة إلا تجربة البشر فى حياتهم المبتدئة ، ولقد سعى الإنسان القديم وراء قضاء تلك الضروريات سعياً كسعى الطفل فى حداثة سنه حين يتمرن على المشى ، فكانت هذه الضروريات بسيطة ومحدودة فى أول الأمر ، ثم استقرت وأخذت مكان العادات والتقاليد ، فالإنسان القديم قبيل انتقال الضروريات القديمة من حالة التجربة إلى حالة التقليد لم ينظر إليها بنظر فلسفى ، ولم يبالغ فى تفسير تلك التجارب مثل مبالغتنا ، ذلك لأن المبالغة والتفلسف هى طريقتنا ، وليست طريقة الإنسان القديم ، فهو لا يعرف تأليف القضايا التى تتركب من الأسباب والعلل ، بل هو يدون الأساطير التى تمثل آراءه فى شكل مادى مشخص ومصور ؛ هذا هو شأنه فى فهم الحياة المخبوءة وراء الستار الطبيعى . وقد قيل إن الإنسان عرف الروح بعد ما فكر فى بعض التجارب مثل النوم والحلم والظل والسراب والنفس والموت ، واتسعت هذه الفكرة عنده فهدته إلى معرفة الجن والروح ، وما زالت تتسع شيئاً فشيئاً حتى غشى الطبيعة بالأرواح .

بدأ ابن آدم حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات ، واتسعت فكرته هذه في معرفة مظاهر الحياة على جهة التعميم ، فظن أنه لا فرق بينه وبين الموجودات في العصر الذي عرف فيه نفسه ، أى شخصيته الثانية المستورة التي دعيت بالروح فيما بعد . وقد حمت الإنسان مظاهر الحياة مثل النوم ومشاهدة كل ما يجرى من الحوادث في الحلم أن يعتقد أنه ذو شخصيتين ، الشخصية الأولى هي القلب المادى ، والشخصية الثانية هي التي تتراءى له في الحلم ، وبعد ما عرف الإنسان الأول الشخصية الثانية أخذ يطبقها على الأشياء جميعها ، فحسب في الحجر الصامت والشجر النامى شخصية مستورة مثل شخصيته في جسده ، وأصبحت الموجودات التي كانت كلها في نظره عالم الجمادات والسكوت الخاضع لنواميس الطبيعة ذات عالم حيوى كعالم الحلم في ذات نفسه .

هكذا بدأ الإنسان الأول يرى في كل مظهر من مظاهر الطبيعة حياة كما كان يشعر بها في نفسه ، وذلك لأن القوة الفكرية في حالة الطفولة لا تستطيع التفرقة بين المادة وغير المادة ، كما لا يستطيع الطفل أن يميز بين الضار والنافع ؛ رأى النجوم تجرى في فلك السماء ، والأشجار تنمو في الأرض وفوق الجبال ، ورأى خروج النار من بطن الشجر الأخضر والحجر الصامت ، فوقف حائراً أمام هذه الغرائب كلها ، فاكتفت عقليته المتحيرة بأن تحسبها أشخاصاً مثل شخصيته وأن لها حياة مثل حياته . بدأت هذه الفكرة عند الإنسان في العصر الذي كان لا يميز فيه بين الجمادات والحيوانات ، وما يزال المتوحش إلى يومنا هذا لا يفرق بين أفراد الموجودات ، بل هو يجهل الفرق بين الجماد والحياة التي تظهر لنا كظهور الشمس ، حتى إنه يقدس الأشياء حيث لا يجوز تقديسها . وطبعاً أن يفهم المتوحش أن الإنسان يشبه إنساناً آخر أكثر مما يشبه الحيوان ، وأنه يشبه الحيوان أكثر من النبات ، والنبات يشبه أكثر من الحجر ، لكن الأشياء كلها ذات شخصية

لديه ، والفرق عنده إنما هو فرق فى الصور واختلاف بسيط فى الأشكال .
 وأما الحقيقة فهى هى ، وهذا النظر يشبه عقيدة أصحاب وحدة الوجود إلى يومنا
 هذا ، إلا أن المتوحش لم يتفلسف مثل فلسفة أصحاب تلك العقيدة ، ولم يعرف
 حقيقة ما وراء الطبيعة ، بل حصر نفسه بادى ذى بدء فى حدود الطبيعة نفسها ،
 ورأى الحقيقة التى لا حقيقة بعدها هى هذه الطبيعة التى يراها بعينه ويلبسها
 بيديه ، ثم امتد به فكره إلى أفق أبعد ، فجعل صلة بينه وبين الموجودات كصلة
 الأبوة والأمومة والأخوة ، ثم جاوز ذلك فقدس الموجودات إجلالا وحفظا لكرامة
 الأسلاف . وفى فهرس الأصنام نجد أسماء الأشياء الطبيعية مثل الشمس والقمر
 والأرض والسماء والشجر والحجر ، وقد جعل الإنسان علاقته بها كعلاقة العبد
 بالمعبود ، فخطبها كما كان يخاطب الإله . لم تكن النصب عند الإنسان المتوحش
 رمزا للإله ، وإنما جسدا له ومركزا لنشاطه كما كان جسد الإنسان المركز الدائم
 لنشاط الإنسان ، وذلك لأن الإنسان فى نظره ايس بعفريت ولا بشبح ولا حياة
 بغير جسد ، بل هو جسد صامت مع حياة متحركة ، وهذه الحياة المستورة التى
 يتخيلها فى النبات والشجر والحجر جعلته يتوهم أن الأشياء المقدسة كلها ذوات
 حياة مستورة مثل حياته .

رأى المتوحش فى الحجر والشجر والحيوان حياة وشخصية كحياته وشخصيته ،
 ولم ير نفسه أرفع من الجماد منزلة أو أسمى منه مقاماً فوشج الصلة بين نفسه وبين
 الجمادات واعتقد أن الصلة بينه وبينها صلة العبد بالمعبود (ودليل ذلك ما نرى
 فى الأساطير القديمة) فالأسطورة اليونانية التى تتعلق بمخاق الإنسان تحدثنا أن آدم
 خالق من طين بينا أنت بعض الأمم الممجبة ترى أن الإنسان الأول خرج من
 بطن الأشجار والأحجار^(١) ، وكثير من الأساطير التى توجد عند قبائل أفريقيا

وأستراليا ومدغشقر وبورنيو ترى الإنسان من نسل الحيوان والأشجار^(١) وتوجد هذه الأساطير أيضاً عند الساميين . فعند الساميين الشماليين أن الأم التي حبلت (بحمل) الأدنسس (Adenses) تحولت في شجر المر الكاوى Myrh في الشهر العاشر من حملها وولدت الشجرة الطفل الذي صار إلهاً فيما بعد^(٢). ومثل ذلك ما نرى في الأسطورة البابلية التي تقول إن الحيوان خلق من الأرض التي امتزجت بدم الإله (مردوخ)^(٣).

وقد ذكر « رابرتسن است » أخباراً كثيرة من هذا القبيل في كتابه أديان الساميين (R. S. Page 47)، وأدب الساميين مثل الأدب البابلي مملوء بالأساطير التي تدل على وجود المذهب الحيوى عندهم .

(١) Folklore in the old testament Vol 1 P. 34. 36. 41

(٢) Page 337 Golden Bough Myth of Adonyses

(٣) Seven tablet of Creation

الفصل الثانی

المذهب الحيوى عند العرب

وجود المذهب الحيوى عند الساميين لا يستلزم ثبوته عند العرب فما هو الدليل على ذلك ؟ لقد بينا أن العربى يميل بالطبع إلى المادة ، ويحب الطبيعة حب العاشق الهائم لحبيبته ، ولذلك يجيد وصف الطبيعة ، والأدب الجاهلى مملوء بالمناظر الطبيعية وبالتشبيهات الرائعة ، والشاعر الجاهلى يبكى على الأطلال ويصغر من الشدائد التى احتملها من الأعداء فى سبيل الحب ، سواء أكانت الأعداء من الإنسان أو من الكائنات كما قال الشاعر :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على أنواع الهموم ليلتلى
ثم هو يصف الناقة أو الحصان الذى ركب عليه ليوصله إلى من يرومه ، فهذا الوصف وأمثاله يدل على شدة شغفه بالطبيعة ، فالطبيعة هى مركز النشاط لتصور البدوى ، والمسرح الذى تهيج فيه عواطف العربى الجاهلى ، والسلطة الوحيدة التى يخضع أمام سلطانها العربى القوى العنيد — فهو ياجأ إلى ظل الشجر والجبل بالنهار ، ويسامر القمر والنجوم بالليل ، ونيس الشجر والجبال التى تحيط به فى الصحراء الوعساء بأشياء عزيزة فحسب ، بل هى أنيسه وسميره ، وهى ذات حياة كحياته ، ولكن ما هى الحياة التى توجد فى الشجر النامى والحجر البركانى كما توجد فى الحيوان جميعاً ؟ وإذا كانت الحياة خارجة عن الطبيعة فليست هى كذلك فى تصور العرب ، لأن الطبيعة هى المذهب والحقيقة التى لا حقيقة بعدها عندهم . والواقع أن النفس كانت عند العرب عبارة عن دم الحياة كما كانت عند

الإسرائيليين^(١)، قال المسعودي: يتنازع الناس في كيفيتها (الروح)، فمنهم من زعم أن النفس هي الدم وأن الروح الهواء الذي كان في باطن الجسم الإنساني الذي منه نفسه، ولذلك سمو المرأة نفساً^(٢)، وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا هومات أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً له في صورة الطائر يصدق على قبره^(٣)، وروى الألويسي: مما كانت العرب كالمجتمعة عليه «الهامة» وذلك أنهم كانوا يقولون ليس من ميت يموت أو قتيل يقتل إلا وخرج من رأسه هامة، فإذا كان قتل ولم يؤخذ بثأره نادى الهامة على قبره: اسقوني فإني صديقة^(٤) وقال شاعر جاهلي:

يا عمرو إلا تذر شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقوني^(٥)

فهذا كله يهدينا إلى أن العرب القدماء دهشوا من مظاهر الحياة دهشة الأمم الهمجية، فبحشوا عن حقيقتها، فلما رأوا أنه ما دام الدم يجري في شريان الإنسان فهو حي، فإذا هريق عن جسده فهو ميت كما قالوا: (مات حتف أنفه) قالوا: إن الدم هو الحياة ثم لاحظوا أن النفس جزء مهم في الحياة، فقالوا إن الحياة عبارة عن الهواء الذي في باطن جسم المرء. وظلت هذه الفكرة مدة من الزمان، فأتى جيل بالغوا في تصور النفس الذي يتكون من الدم والهواء حتى اعتقدوه طيراً من الطيور التي لها علاقة بالتشاؤم، وهذا الطير هو البومة التي تمثل الخراب والفساد والموت عند الأمم. من هذا الذي عرضناه يثبت أن العربي لم يتصور حقيقة الحياة أو الروح خارجاً عن المادة، فكيف والحالة هذه نسلم أنه عرف الحقيقة الخالدة المستورة وراء

Page 40. Religion of the Semites. Foot-note (١)

(٢) مروج الذهب للمسعودي ص ٣٠٩ مطبعة (Société Asiatique)

(٣) المسعودي ص ٣١٠.

(٤) بلوغ الأرب الجزء الثاني ص ٣١٣

(٥) روى: يا عمرو ألا تدع شتمى ومنقصتى.

الحجب الطبيعية ، أو عرف معنى الروح فى العصر الذى كانت الهامة تمثل الروح فى تصويره ، وكلما أمكن تشرح أقوال الرواة فى هذا الصدد استطعنا أن نقول إن العربى إذا كان عرف الروح فقد عرفه فى العصر الذى انتشرت فيه الصابئة واليهود ، لا فى العصر الذى سادت فيه أسطورة الروح المذكورة إذ كانت الحياة عبارة عن الطبيعة نفسها ؛ ويؤكد ذلك أن نرى كيف كان اليهود ينظرون إلى العرب حتى فى عصر بدء الإسلام ؛ فقد ورد فى تفسير الطبرى حدثنا أبو هشام قال حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرث بالمدينة ومعه عسيب يتوكأ عليه فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم : اسألوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، فقام متوكئاً على عسيبه فقامت خلفه فظننت أنه يوحى إليه فقال : « ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فقال بعضهم لبعض : « ألم نقل لكم لا تسألوه »^(١) . ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل اختلف أهل التأويل فى الروح المسئول عنه : قال بعضهم هو جبريل لأنه الروح الأمين ، وروى عن على أنه قال : الروح ملك له مائة ألف رأس لكل رأس مائة ألف وجه فى كل وجه مائة ألف فم فى كل فم مائة ألف لسان^(٢) . أما صاحب لسان العرب فاقصر على أن الروح نسيم الهواء وكذلك نسيم كل شىء ، فهذا هو الأصح بالنسبة إلى الفكرة العربية لأن العرب أنفسهم كانوا معترفين بعجزهم عن فهم الروح والروحانيات كما قيل : بعثت قريش النضر بن حارث ومعه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما : سلامهم عن محمد ، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء^(٣) .

(١) تفسير ابن جرير الطبرى المجلد الخامس عشر ص ١٠٤ .

(٢) الترويض الأنف ص ١٩٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ص ١٠٢ .

هكذا كان شأن العربى بإزاء الروح والروحانيات ، وإذا كان العربى لم يعرف الروح ، فكيف ثبت له مذهباً حيويًا ؟ صحيح أن العربى العادى لم يعرف حقيقة فوق الطبيعة ، لكن لا أقصد بذلك أنه لا يستطيع التمييز بين الرطب والجاف ، وبين الجامد والسائل ، وبين الحى والميت ، وبديهى أنه يرى الشجر والحجر ساكتين وصامتتين ، ويرى فى الجمل والحصان حياة وحركة ، كما يرى السكون شيئاً والحركة شيئاً آخر ، والجماد شيئاً والحيوان شيئاً آخر ؛ فلا يبعد أن تكون الحياة عنده عبارة عن الحركة التى هى ضد السكون ، وذلك ليس ببعيد عن القياس ، لأن الحياة يراد بها الحركة نفسها عند الكلدانيين كما قيل كان الروح أو زى (Zi) عندهم عبارة عن ظهور الحياة ، وكان اختبار ظهور الحياة هذه الحركة^(١) ، وكذلك كانت كلمة أثما (Atma) عند الهند القدماء ، وكلمة أيوم (Aeom) عند الانجلو سكسون (Anglo Sax.) عبارة عن التنفس فى مبدأ الأمر^(٢) . وهذه الفكرة تنطبق على تصورات دينية قديمة ، لأن المتوحش أينما يجد حركة فى شىء يحسبه ذا حياة مستورة عن حواسه ، فلا غرو إذا قلنا إن العربى كان يبحث عن معنى الروح فى الحركة نفسها ، لأن الروح فى الأسطورة العربية طائر تدركه الأبصار وتلمسه الأيدي لاشىء فوق الطبيعة ، وهذا التصور ليس بوهم من أوهام الشعراء ولا من مخترعات الخيال ، بل حقيقة واضحة وعقيدة مألوفة عند العرب جميعاً .

أما تصور الروح فى شكل الطير ، فليس بشىء غريب خاص بالعرب لأنه يوجد عند الأمم جميعاً فى دور بداوتها . فقبائل الهنود فى أمريكا يعتقدون أن الطيور التى تخلق فى الجو ما هى إلا أرواح آبائهم الأولين ، وكذلك الأزديون

P. 49 Religion of Primitive peoples By Brinton (١)

Chadwick's Growth of Literature, Vol II P 586 (٢)

والبوهاتيون فى أرجينيا يقولون إن أرواح الشهداء تكسى لباس الطيور المفردة وتقفز من زهرة إلى زهرة فى ضوء الشمس^(١) .

وقصارى القول أن الروح عبارة عن الحياة الطبيعية أو الحركة عند المتوحشين وكذلك كانت عند العرب . وهنا نصادف صعوبة أخرى فى تفسير تفكير العرب إذ كانت العرب تعتقد فى الجن والهواتف والغول والسعلاة ، وهذا كله يدل على أنهم كانوا يعتقدون فى شىء غير مادى وغير عنصرى وهو يخالف ما قلنا فى عقيدة العرب فى الروح ، ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن الجن والغول وأشباه ذلك ما هى إلا صنف من الحيوان فى تصور العرب القدماء ، وسوف نفسره فى باب المذهب الطومى إن شاء الله . أما إثبات أن العرب رأوا فى الشجر والحجر حياة كحياتهم ، فنستدل عليه بالأساطير التى حكيت عن حياة العرب الاجتماعية .

والذى يظهر لنا فى عقائد العرب القدماء بأجلى مظاهره شغف أهل البادية بحكاية مسخ الإنسان حجراً أو شجراً أو حيواناً ، فقليل مثلاً إن الصفا والمروة كانتا رجلاً وامرأة ثم مسخا^(٢) حجراً ، وهكذا قالوا فى أساف ونائلة^(٣) . وكذلك قيل إن العربى لم يأكل الضب لأنه كان يظنه شخصاً إسرائيلياً ثم مسخ^(٤) . وروى الدميرى عن مسلم عن أبى سعيد وجابر فالأ إن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بضب فأبى أن يأكله وقال لا أدرى لعله من القرون التى مسخت وقال الدميرى فيما بعد : « أما حديث الضب والفأر فكان ذلك قبل أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم » فيتبين من كل هذا أن فكرة المسخ كانت منتشرة فى

(١) P. 6. Myths And Legends of Ancient Egypt By Lewis Spince

(٢) عجائب المخلوقات لغزوى تحت الجبان .

(٣) حياة الحيوان للدميرى .

(٤) أخبار مكة للأزرقي ص ٦٩ و ٧١ .

شبه الجزيرة قبل الإسلام ويؤيد ذلك ما قال المقرئى أن « بوادى حضرموت بالقرب منه على مسيرة يومين إلى نجد قوم يقال لهم « الصيغر » يسكنون القفر فى أودية ، و فرقة منهم تنقلب ذئاباً ضارية أيام القحط ، وإذا أراد أن يخرج أحدهم من سلاح الذئب إلى هيئة الإنسان وصورته تمرغ بالأرض وإذا به يرجع بشراً سوياً . وقال : إن فى وادى حضرموت قبائل منها البراوجة والجلابية والنباتنة وآل أبى مالك وآل مسلم وآل ابن ربيع وآل أبى الحشرج ، وجميع هذه القبائل لها أحوال عجيبة ، منها أن الرجل منهم يمر فى الهواء ليلاً من حضرموت وقد انقلب فى هيئة طائر كالرخة والحدأة حتى يبلغ أرض الهند ^(١) ، وقيل إن بنت نصر مسخ أسداً فكان ملك السباع . ويعتقد بعض القبائل إلى يومنا هذا أن قبيلة بنى صخر من أولاد جبل رملى يقع قريباً من مدائن صالح ^(٢) .

وهكذا كثرت رواية القصص التى تتعلق بمسخ الإنسان حيواناً وأحجاراً فى شبه جزيرة العرب ، واختلف الناس فى المسخ ، فمنهم من زعم أن المسخ لا يتناسل ولا يبقى ، ومنهم من زعم أنه يبقى ويتناسل ، حتى جعل الضب والأرانب والكلاب من أولاد تلك الأم التى مسخت فى هذه الصور ^(٣) . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل كانوا يخالون أنهم يسمعون من أجواف الأوثان هممة ^(٤) . وكانوا يخاطبون الجبل كما يخاطب الرجل أخاه ، كما قيل : كان المشركون إذا أرادوا الإفاضة قالوا : « أشرق يا ثبير كيا نغير » وكانت الشمس تشرق من ناحية جبل ثبير ^(٥) .

(١) الطرفة الغربية ؛ أخبار وادى حضرموت العجيبة ؛ لأحمد على عبد القادر بن محمد المقرئى ص ١٩ و ٢٠ .

(٢) P. 17 Doughty's Arabia deserta.

(٣) الحيوان للجاحظ المجلد الرابع ص ٢٣ .

(٤) كتاب الأصنام ص ١٢ .

(٥) « ثبير » معجم البلدان .

وكانت الجبال تؤثر فى حياة الإنسان ، كما كان للشاعر والكهان أثر فى حياته الاجتماعية ، فكان من تأثير جبل أبى قبيس أنه يزيل وجع الرأس ، ومن تأثير جبل خودقور أنه يعلم السحر . أما الشجر فلم يكن أقل شأنًا فى حياة العرب الاجتماعية ، فكان العربى يجعل القرابة بينه وبين النخل كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أكرموا عماتكم النخل » ، وقال القزوينى : « إنما سماها عماتنا لأنها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام » ، وأما الضمير فى « عماتكم » فيدل على أن النبى عليه الصلاة والسلام أراد به إظهار عقلية الجاهلية فكلم الناس على قدر عقولهم . ولم يكن غريباً أن يتوهم العربى القرابة بينه وبين النخل ، وذلك لأن عقله البسيط رأى شبه الإنسانية فى النخلة ، فهى تشبه الإنسان من حيث امتياز ذكرها عن أنثاها ومميزاتها المخصوصة باللقاح . فقد قال القزوينى ^(١) : (ولو قطع رأسها لهلك ، ولها غلاف كالشميمة التى يكون الجنين فيها ، والجمار الذى على رأسها لو أصابته آفة لهلك النخلة كهيئة مخ الإنسان إذا أصابته آفة ، ولو قطع منها غصن لا يرجع بدله كعضو الإنسان ، وعليها ليف كالشعر يكون على الإنسان . وروى عن صاحب الفلاحة أنه إذا لم يثمر بعض النخل يأخذ رجل فأساً ويقرب منه ويقول لغيره : إنى أريد قطع هذه الشجرة لأنها لا تثمر ، فيقول الآخر : لا تفعل فإنها تثمر فى هذه السنة ، فيقول الرجل : إنها لا تفعل شيئاً ، ويضربها ضربتين أو ثلاثاً ، فيمسك الآخر يده ويقول : لا تفعل فإنها شجرة حسنة ، واصبر عليها هذه السنة ، فإن لم تثمر فاصنع بها ما شئت . قال فإذا فعل ذلك فإن الشجرة تثمر ثمراً كثيراً ، وكذلك غير النخل من الأشجار إذا فعل به هذا يثمر . وقال أيضاً : إذا قاربت بين ذكران النخل وإنثاها فإنها يكثر حملها ، لأنها تستأنس بالمجاورة وإذا قطع إلفها من الذكران فلا تحمل شيئاً لفراقها ، وإذا

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى ص ٢٣١ « غيرنا بعض الكلمات نظراً لأغلاط الطبع » .

غرست الذكران وسط الإناث فهبت الريح فخالطت الإناث رائحة طلع الذكر حملت من تلك الرائحة كل أنثى حوله ، وإن اتخذت لها منطقة من الأسرب (يكثر ثمرها) . وكذلك كان اعتقادهم في الرتم ، لأنهم كانوا يرون في الأشجار حياة وتسعوراً مثلهم ، فكان العربي يجعلها رقيباً وحارساً على زوجته في مدة غيابه كما قيل إن العرب في الجاهلية كانوا إذا أراد أحدهم أن يسافر عن حليلته عمد إلى هذه الشجرة وشد غصناً منها إلى الآخر وتركها ، فإذا عاد من سفره ذهب إليها فإن وجدها بمحالتها مشدودين استدل بهما على أن حليلته ما خانتها في غيبته وإن وجدها محلواين استدل بهما على خيانتها^(١) . وكذلك كانوا يعملون في الشجر العشر وقالوا إنها سم قاتل ، فالحتمل أن تكون الشجرة من الأشجار الخيفة في مبدأ الأمر لكونها سما قاتلاً لذلك خافوا من قرينتها ، وبعد مرور الزمان أصبح الخوف هذا تقليداً من تقاليد العرب الجاهلية ، وكانت العرب إذا ولدت المرأة منهم أخذوا دم السمر ويسمونه بحيض السمرة وهو صمغه الذي يسيل منه فينقطون منه بين عين النفساء ويخطون على وجه الصبي خطاً خوفاً عليه من الخطفة والنظرة ويسمونه بالنفرات . ذلك إلى أن العربي كان يعبد الأشجار ويرى فيها روح الشر مثل الحماطة ، وهي شجرة شبيهة بالتين ، وهو أحب الشجر إلى الحيات ، أو العشر التي كانت العرب تظنها مسكن الشياطين قبيل الإسلام . وإذا كان العلم بالجن والشياطين علماً حديثاً وفكرة دينية ، فإن وجود فكرة مثل هذه تدل نفسها على أن تلك الأشجار كانت ذات حيوية عند العرب ، وأن هذه الحيوية تحوّلت في صورة الشياطين في عصر الأديان ، كما أصبحت الآلهة القديمة جنا في عصر اليهود والنصارى ؛ فتطور حيوية الأشجار في أرواح الشياطين إنما كان وقت انتشار الأديان في شبه جزيرة العرب . ومن ذلك ما قيل من أن

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٦ .

العزى وهى من آلهة العرب القدماء كانت شيطانة . أما ظهور العزى على ثلاث شجرات سموات فهو يدل على الفكرة ، لأن الأشجار التى كانت تمثل روح الشجر نفسه أصبحت محل حلول تلك الأرواح التى تقيم فيه وتهجره كيفما تشاء . فهذه العقيدة تدل على أن هذه الفكرة تطورت من حيوية الشجر إلى ألوهيته . وههنا نلاحظ أن فكرة البادية انتقلت من طور إلى طور آخر وهو أن حيوية الشجر والحجر تطورت إلى صورة الجن والأرواح التى تسكنه ، فأصبحت الأشجار والأحجار من بقايا تبركات تلك الأرواح ، وهذه الفكرة المعكوسة إنما هى رد فعل لتطور الحيوية وهو ما نسميه بالمذهب الفيتشى (Fetishism) فحيثما وجدنا المذهب الحيوى نجد المذهب الفيتشى فى أثره . فوجود الواحد فى أمة من الأمم يستدعى وجود الآخر فيها لأنهما مذهبان متلازمان .

أما الفرق بين المذهب الفيتشى والمذهب الحيوى فهو أن الثَّصُب فى المذهب الحيوى هو الشخصية الوحيدة للإله المنسوب إليه ، وفى المذهب الفيتشى ليس بإله بل محل للإله المتجول فى الآفاق . وكذلك المذهب الطوتى يختلف عن المذهب الفيتشى بأن الشئ فى المذهب الفيتشى ينفذ أوامر الإله المساط عليه ، لكون الشئ فى المذهب الطوتى هو ملجأ الجاهليين ومأواهم ، فالطوتم هو الإله ، وآثار الطوتم مطية الإله . فالمذهب الفيتشى يتعلق بتقديس الأشياء كبيرة كانت أو صغيرة ، طبيعية كانت أو مصنوعة ؛ ويرى أن لكل مادة من تلك الأشياء روحاً تحتل الجسم أو تتصل به ولها سلطان على الأجسام الأخرى ، كما قيل إن عبید غابة كانوا إذا خرجوا إلى السفر أقسموا أمام أول كائن يبصرونه أنهم يخلصونه بأنواع العبادة إذا وفقوا فى سفرتهم ، فعبدوا لذلك الأشجار وأغصانها وجذورها وقشورها والعظم والريش والنباب والمخلب والحافر والسن والظفر والحجر وأنواع الحيوانات وآلات الحرب والشمس والقمر وغير ذلك ، معتقدين أن لها

قوة مؤثرة وقدموا لها القرايين باعتبار الروح التي تتصل بها أو تحتلها ، واتخذوها
 تميمة تقيهم عوادي الأيام ؛ وهذه ديانة كل الأمم المتوحشة ، واعتنق هذا الدين
 كثير من العرب^(١) ، فكانوا يعتقدون أن سبب المرض روح شرير حل فيه ،
 فيداوونه بما يطرد هذه الأرواح ، وإذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق
 الأقدار وعظام الموتى ، وإذا أراد رجل دخول القرية فخاف وباءها أو جنيتها وقف
 على بابها قبل أن يدخلها فتهق نهيق الحمار^(٢) ، ثم علق عليه كعب أرنب ، كأن
 ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن ، وسموا هذا التهيق التعشير ، وقال شاعر :
 ولا ينفع التعشير إن حم واقع ولا زعزع يغنى ولا كعب أرنب
 وكذلك كانت^(٣) العرب تعلق على الصبي سن ثعلب وسن هرة خوفاً من
 الخطف والنظرة ، ومن مذاهب العرب أيضاً تعليق الحلي^(٤) والجلال على اللديغ
 يرون أنه بذلك يفيق^(٥) ، وكان الغلام منهم إذا سقطت له سن أخذها بين
 السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال : يا شمس أبدليني
 بأحسن منها . وهكذا كانت شأنهم في بعض تقاليدهم مثل الرتم والنفرات
 والاستمطار بالبقر وغير ذلك^(٦) .

(١) أديان العرب لمحمد نعمان الجارم ص ١٢٢ مطبعة السعادة بمصر .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٥ .

(٣) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٤) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٤ .

(٥) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٨ .

(٦) بلوغ الأرب للألوسي .

الباب الثالث

المذهب الطوتمى

الفصل الأول

نظرية المذهب الطوتمى

١ — تعريف الطوتمية : الطوتمية كلمة أبجوية (Objeway) من هنود أمريكا دخلت فى اللغة الإنجليزية سنة ألف وسبعمائة وإحدى وتسعين على يد الأستاذ جى لانج (J. Lang) الذى كان يقوم بوظيفة الترجمان بين البيض والهنود الحمراء فى أمريكا الشمالية ؛ ويراد بها كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه ، وقد يكون الطوتم حيواناً أو نباتاً ، وهو يحمى صاحبه ويبعث إليه الأحلام اللذيذة ، وصاحبه يحترمه ويقدسه ، فإذا كان حيواناً فلا يقدم على قتله ، أو نباتاً فلا يقطعه ولا يأكله إلا فى الأزمة الشديدة^(١) .

٢ — نظرات الطوتمية : اختلف العلماء فى بدء الطوتمية ، وذهب الباحثون فيه مذاهب شتى ، فمنهم من قال إن الطوتمية ترمى إلى نشاط تعاونى فى الأعمال لتجهيز المواد الأولية بمقدار كبير لأفراد القبيلة ، ومنهم من قال إن الطوتم كان فى مبدأ الأمر بهيما وحشياً ، ووجد فى بيئة بحرية ، ومن ثم نشأ الإنسان الذى ينتسب إلى جده الطوتمى ؛ فهاتان النظريتان دعنا إلى قيام مدرستين^(٢) ، فمن

(١) Encyclopedia Britanica and Totemism & exagomy

(٢)

أساتذة المدرسة الأولى بربرت استيد الذى قال : « إن الطوتمية بدأت من سوء تفسير الألقاب » 'Misinterpretation of nick - names' ^(١) . وأراد بذلك أن المتوحشين سموا أنفسهم بالأشياء الطبيعية التى اختلطت بأسماء الأسلاف ، ثم تقدست تلك الأشياء مع تقديس الآباء على مرور الزمان ، فاعترض عليه المعارضون بأن سوء التفسير لا يؤثر عادة فى الحياة الاجتماعية إلى هذا الحد ، فأقام فريزر (Frazer) مدرسة أخرى وزعم أن الطوتمية عند القبائل فى وسط استراليا — لو صح استنباطنا من طقوس انتيجيوما (Intichiuma) — تدل على أنها نظام قائم على قواعد السحر والطمس ، يريد به أهل الطوتم استكثار المواد لسد الحاجة ^(٢) ؛ وافقه أخيرا على ذلك « سبنسر » إذ قال : « إن الطوتمية فى اعتبارها الدينى قديمة جدا » ، أما اعتبارها الاجتماعى المستمر إلى يومنا عند قبائل استراليا فهو طراز جديد ، فاتفقت كلتا المدرستين على كون الطوتمية دينية بحتة فى مبدئها — ثم تفرعت إلى نوعين ، نوع دينى وآخر اجتماعى ، فمن الوجهة الدينية يسمى أفراد القبائل أنفسهم بأسماء الطوتم ، ويعتقدون أنه أب للقبيلة ، وأنهم من نسله ، فمن قبائل ^(٣) ايروكو (Iroquois) من هنود أمريكا قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة ، وأخرى تعرف بقبيلة الذئب والدب ، وهم يعتقدون أنهم من نسل الدب والذئب ، وتنتمى قبيلة أوبجيويس (Objiways) إلى الكلب ، كما كان الكركى أبا لقبيلة الكركى عند أوبجيويس ^(٤) ، وكما كان الإوز أبا لقبيلة سنتال فى بنغال ^(٥) ؛ وقس على ذلك قبائل فى غرب استراليا تنسب إلى البط أو الإوز أو غيرها من الطيور المائية ^(٦) ، فكل من هذه

(١) P. 367 Principales of Sociology

(٢) P. 87. Totemism & Exagomy By Frazer

(٣) اعتبارات قديمة .

(٤) P. 5. Totemism & Exagomy

(٥) « « « «

(٦) P. 7. « « « «

[illegible]

طوته يجازى بالموت بأن يقيم الطوتم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت .
ويؤمنون من الجهة الأخرى بأن من احترم الطوتم احترمه الطوتم أيضاً فإذا كان
الطوتم في سنغامبيا (Senegambia) من السباع أو من الحيات أو من العقارب
فإنهم لا يخافون لسعها^(١) ، لأنهم على ثقة أن الحية لا تأسعهم . وفي أوماها
(Omaha) يداوى أصحاب الطب المريض بتصوير صورة طوته أو يحكون صوته
أو عمله حينما يعالجونه .

٦ — وكذلك يتوهم أصحاب الطوتم أن الطوتم ينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه
بعلامات أو رموز على نحو ما يعبر عنه بالقال والطيرة . فإذا طار البوم أمام قبيلة
البومة وقت خروجهم إلى الحرب تفاءلوا به ، وإذا طار وراءهم تشاءموا منه ورجعوا
من حيث أتوا^(٢) .

أما الطوتومية من الوجهة الاجتماعية فمظهرها تعاقد أهل القبيلة فيما بينهم باعتبار
علاقتها بالقبائل الأخرى . وكانت الروابط الطوتومية هذه أشد ما تكون بين
أفراد العائلة الواحدة المبنية على صلة الرحم ، ويتبين هذا جليا في قبائل أستراليا
الغربية وأمريكا الشمالية الغربية^(٣) ؛ ففي قبائل جييجروس (Geojiros) إذا
أراد الرجل الانتحار أو الإضرار بنفسه فعليه الدية .

ومن أهم الروابط الطوتومية أن رجال الطوتم الواحد ونسائه لا يتزوجون من
قبيلتهم ، وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجي ، ومن يخالف تلك الشريعة
يعاقب بالموت في أستراليا^(٤) . وعند الهنود الكريك (Creek)^(٥) لا تتزوج

(١) P. 20. Totemism & Exagomy by Frazer

(٢) 23. « « «

(٣) Totemism & Exagomy P. 53

(٤) P. 54 « «

(٥) P. 56 « «

قبيلة الذئب من قبيلة الذئب الأخرى ، لأن هذا يؤدي إلى الأمومة ، إذ المولود في هذه الشريعة ينتسب إلى الأم ويتبع طوتم أمه لا طوتم أبيه ، كما هو معروف عند قبائل استراليا وأمريكا الشمالية^(١) . غير أن هذه ليست قاعدة مطردة ، لأن هناك قبائل تنتسب إلى الأب كما تنتسب إلى الأم^(٢) ، كما إن قبائل أخرى وجدت وهي ليست مبنية على الزواج الخارجي ، فقد قيل أن قبيلة آرتا في وسط استراليا تعتقد أن المرأة تحمل بدخول روح من أرواح النبات والحيوان السالفة التي تنتقل من مكان إلى مكان في جسدها . فالولادة هي عودة ذلك الروح في شكل المولود ، كما كانت الروح التي دخلت في المرأة وقت ظهور الحمل هي الطوتم المولود . وتختلف قبيلة آرتا عن القبائل الأخرى بأنها مع اعترافها بتقمص الروح الحيواني في شكل المولود فإنها تنسب تلك الأرواح إلى حجر تسميه الشرنجة (Churinga) ؛ فهذه الطوتمية غير وراثية وايست مبنية على الزواج الخارجي ، لأن الطوتم باتسابه لذلك الحجر ولتلك الأرواح المتعلقة بإمكانه متعددة صار طوتماً محلياً . فإن الطوتم قد يخرج من قبيلته الأصلية ويدخل في قبيلة أخرى ، كما أنه يستطيع أن يخطب امرأة تحمل الطوتم مثله^(٣) .

والخلاصة أن العلماء اختلفوا في بدء الطوتمية وفي أغراضها وفي أسبابها ونظرياتها واعتباراتها ، وظهر من هذه الاختلافات المتباينة أن بدء الطوتمية غير محدود ومتعذر تحديده لبعدها عن عمر التاريخ . وكل ما نعرف عن هذه الطوتمية هو أن أمة همجية في دور بداوتها كانت تقدر النبات والحيوان ، وفي أكثر الأحوال كانت تعتقد بعلاقة بينها وبين الحيوان المنسوب إليها . فالطوتم بالنظر

(١) Totemism & Exogomy

(٢) Totemism & Exogomy P. 66 & 67.

(٣) Encyclopedia Britanica "Totemism,"

إلى التقاليد المختلفة عند عدة قبائل يظهر في ثلاث طبقات : أولاً الطوتم القبلي ،
 وثانياً الطوتم الجنسى ، وثالثاً الطوتم الشخصى . وتختلف الطوتمية عن الديانة
 الفيتشية بأن الطوتم لم يكن شيئاً منفرداً بذاته ، بل هو يمثل جماعة من جنس
 واحد بخلاف العبادة الفيتشية .

وإذا كانت الطوتمية هذه تحتاج إلى تحديد نظريتها ، فماذا يكون شأن
 الاعتبار والشرائط التي يهتم بها العلماء اهتماماً عظيماً ، فمن يقول إنه يستلزم
 الأمومة لأن الأبوة متأخرة عن الأمومة ، فلا أرى لزماً أوداعياً لثبوت الطوتمية
 وذلك لأن الأمومة نتيجة من نتائج الطوتمية الاجتماعية ، وذلك لا يحصل
 إلا بعد تطور الطوتمية من الوجهة الدينية إلى الوجهة الاجتماعية فلا يلزمنا لثبوت
 الطوتمية أن نثبت الزواج الخارجى والأمومة لأنها تولد منها ولا تولد منهما .

الفصل الثاني

المذهب الطوتمي عند العرب

بدأت الطوتمية عند المنوحشين ولا نعرف كيف كانت نشأتها ، وكذلك نرى آثار الطوتمية عند العرب ولا نعرف كيف كان منشؤها في الجاهلية . وقد استمرت الطوتمية عند الأمم الهمجية ولا تزال عند قبائل استراليا وجنوب أمريكا وأفريقيا والهند كما كانت عند العرب القدماء ، ولا تزال آثارها ظاهرة في أخبار الجاهليين فعلينا أن ننظر في الآثار الباقية عن العرب الجاهلية لتبين مبلغ ما فيها من العقائد الطوتمية .

أما الطوتمية فبنية على اعتبارين : اعتبار ديني واعتبار اجتماعي ، وتختلف القبائل بعضها عن بعض بهذين الاعتبارين وفق البيئة المحلية . فهما متلازمان عند البعض ، وينفرد الاعتبار الاجتماعي وحده عند البعض الآخر ، كما أن الطوتمية باعتبارها الديني توجد في الأقاليم التي ذهبت عنها الطوتمية باعتبارها الاجتماعي^(١) .

فلنبحث الطوتمية من وجهتها الاجتماعية عند العرب . وللطوتمية الاجتماعية ثلاثة مظاهر : (١) التعاون المتبادل (٢) الزواج الخارجي (٣) الأمومة .

التعاون المتبادل :

كنت القبيلة أو الشعب عند العرب تتفرع إلى عشائر و بطون وأفخاذ ونحو

ذلك ، وكان لكل قبيلة بثر وكلاً وأودية خاصة بها كحمى كليب بن وائل وزمزم ، وكانت سلطة الشيوخ على القبائل العربية كما نعلمه محدودة ، لأن العرب كانوا أهل حل وترحال يغيرون شيوخهم بتغيير أمكنتهم . وكان تخصيص الرجل من رجال العرب باتساق القبيلة إليه دون غيره من قومه هو أن يشتهر اسمه برياسة أو شجاعة أو كثرة ولد أو غيره فتنسب بنوه وسائر أعقابهم إليه ، وربما انتسب إليه غير أعقابهم من عشيرته كاخوته ونحوهم فيقال فلان الطائي . فإذا أتى من عقبه من اشتهر منهم أيضاً لسبب من الأسباب المتقدمة نسبت إليه بنوه وجعلت قبيلة ثانية^(٢) بل كان الرجل من بني كلاب يستطيع أن ينسب إلى بني أسد لأجل شجاعته^(٣) ، وهذا خلاف ما يرى أهل الطوتم في قبائلهم لأن قبيلة أسد عندهم لن ينسب أحدها إلى قبيلة كلب .

ومع أن أفراد القبيلة الواحدة يعدون إخوة وأخوات يتعاونون في السراء والضراء كما قالوا : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، فقد كانت الحروب تسود بين بطون القبيلة الواحدة إذا تشعبت بطونها كالعداوة بين ربيعة ومضر وبين عبس وذبيان ، وبكر وتغلب ، والأوس والخزرج ، وعبد شمس وهاشم . وأحياناً كانت القبائل العربية تساعد المظلوم ضد بطونها ، وكان الفرد يحارب قبياته نفسها كما يقال : « أغار ناس من شيبان على رجل من بني العنبر يقال له قريط بن أنيف وأخذوا ثلاثين بعيراً ، فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فأتى بني مازن فركب معه ثمر فأطردوا ابني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه وخرجوا معه حتى صاروا إلى قومه فقال قريط :

-
- (١) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١ .
 (٢) ديوان الحماسة المجلد الأول ص ١٣ .
 (٣) كما يقال له حليف بني فلان .
 (٤) ديوان الحماسة المجلد الأول ص ١٣ .

لو كنت من مازن لم تستبح إلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا وهذا أيضاً يخالف الشريعة الطوتمية ، لأن الشريعة الطوتمية تلزم أصحاب الطوتم الواحد أن يتعاونوا على أصحاب الطوتم الآخر إذا نشبت الحرب فيقاتل الرجل عن زوجته والولد عن أبيه وأمه .

الزواج الخارجي :

إذا نظرنا إلى أنواع الزواج عند العرب وجدنا أن العربي لم ينظر إلى الزواج الخارجي من حيث هو الشريعة المطردة ؛ لأن الباحثين عن الأمومة اضطروا أن يسلموا بوجود أربعة روابط في الجاهلية وهي : النكاح الشرعي^(١) ونكاح الاستبضاع^(٢) ، ونكاح^(٣) يجتمع الرهط فيه ما دون العشرة ، ونكاح آخر يجتمع فيه الناس الكثير^(٤) ، فنصوص هذه الزيجات الأربع لا تقيّد الرجل أو المرأة بأن لا يتزوجا من داخل قبيلتيهما ، وهاك نصا تاريخيا من المعجم الجغرافي للسائح اليوناني الشهير استرابون (Strabo) حيث قال في أمر الزواج عند العرب : « كانوا يعاقبون الزاني بالموت ، والزاني عندهم من جامع امرأة من غير عشيرته »^(٥) . فهذا نص يهديننا إلى أن الشريعة المعتادة عند العرب أن يتزوج الرجل من داخل عشيرته ، والواقع أن هذه العادة متأصلة في أخلاقهم أجيالا ما تزال إلى يومنا هذا ، فنبذوا يزاؤون يفضلون أكبر أبناء العم في حق الزوج بابنة عمه^(٦) ، وكان العرب يقولون إذا تزوجت في غربة : « لا أيسرت ولا أذكرت ، فإنّ تدنين البعداء وتدين الأعداء » . فان دلت هذه الأقوال

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) : الجزء السادس من صحيح البخاري .

(٥) P. 395 "The Geography of Strabo," Volume VII edited by I. L. Page Litt. D.

(٦) P. 137 "The manners & Customs of the Rewala Bedowins by Alois Musil 1928 edition

والآثار على شيء فانها تدل على الزواج الداخلى عند العرب ، أما القول بأن سماحهم بالزواج بين أبناء العمومة خلافاً للمأثور عنهم عن ذم الزواج بين الأقارب يدل على نظام الأمومة ، فهو تعليل كما يرى الأستاذ ناشد سيفين^(١) يكون صحيحاً إذا ثبت أن الزواج بين الأقارب غير أبناء العمومة كان ممنوعاً عند العرب .

وخلاصة القول أن القرشى كان يفضل القرشية خلاف المأثور عن ذم الزواج بين الأقارب ، ولهذا أرى الأقوال الحكيمة مثل « النزاع لا القرائب » إنما هي تجارب متأخرة عن تلك العادة القديمة المتأصلة ، فهذا الزواج الداخلى عند العرب يخالف الشريعة الطوتمية التى تلزم قبيلة الذئب منه أن لا يتزوج من بين نساء قبيلة الذئب — ولكن لا أريد بهذا الزعم أن أقول إن العرب حصروا الزواج فى داخل القبيلة ، بل أريد أنهم لم يكونوا شديدي التمسك بشعيرة الزواج كأصحاب الطوتم فى استراليا وأمريكا .

الأمومة :

الأمومة عند القبائل الطوتمية تختلف فى مظاهرها باختلاف القبائل أو البلاد ، ففي بعض القبائل الأسترالية يرث الابن طوتم أبيه ، وترث البنت طوتم أمها كما روى عن قبيلة ديرى (Dieri) فى جنوب استراليا^(١) ووجد فى استراليا كثير من القبائل ينتمى بعضها إلى الأم وبعضها إلى الأب ، فليس من الضرورى أن تنسب القبيلة الطوتمية إلى الأمومة دائماً ، فقد قيل : « إن الأبوة والأمومة ليست إحداها بأقدم فى العهد من الأخرى ، فيجوز أن تبتدى إحدى القبائل بالأبوة والأخرى بالأمومة ، فلا يستطيع أحد أن

(١) مجلة المقتطف يناير سنة ١٩٣١ مجلد (٧٨) .

(٢) Totemism P. 69

يحتج بأنه لم يكن كذلك»^(١) . بناء على ذلك لا أرى داعياً للتمحيص عن الأمومة عند العرب ، لأن ثبوت الأمومة يتوقف على ثبوت الطوتمية الاجتماعية لا العكس ، كما أنني لا أناقش جميع الأدلة التي جاء بها ولكن (G. A. Wilkin) في مقالته « الأمومة عند العرب » مقتنعاً بما رده الأستاذ ناشد سيفين في مجلة المقتطف (يناير سنة ١٣١١ مجلد ٧٨) ، بل أزيد على أدلته التي تتعلق بموضوع البحث — بدأ « وأكين » بتحليل زواج الاستبضاع والمتعة وزواج المشاركة ، واستنتج منها : « أنه مر على العرب الجاهلية رده من الزمن لم يكن فيه للولد — وذلك إما لشيوع زواج المشاركة بينهم أو لأسباب أخرى نجهاها — أب حقيقى^(٢) فأدى هذا إلى شيوع نظام الأمومة عند العرب » . لكن هذا الاستنتاج مبنى على اعتقاد أن زواج المشاركة هو وحده الذى كان منتشراً فى الجاهلية ، وهذا تحريف فى التاريخ ، لأن (Wilkin) نفسه يعترف بأن أنواعاً أخرى من الزواج كانت سائدة عند العرب الجاهلية ، فاستنباطه هذا لا ينطبق على جميع طبقات الأمة العربية التى كانت تسلك مسلكاً غير زواج المشاركة ، أما الاستبضاع والمتعة فهما لا يؤديان إلى عدم معرفة الأب ، بل المرأة التى كانت تطلب نجابة الولد كانت تعرف أبا المولود ، وكذلك المتعة كانت لأجل معين ، وهذه المدة مهما كانت قصيرة فإنها تكفى لاتساب الولد إلى زوج أمه الأخير ، لأن المرأة العريقة هى التى كانت تنسب الولد إلى أبيه فى مثل هذا الزواج^(٣) وفضلاً عن ذلك فن زواج المشاركة نفسه لا يؤدى إلى ما قاله ولكن (Wilkin) لأن الروايات التى دعت إلى أن يستنبط منها زواج المشاركة تقول

(١) Encyclopedia Britanica Totemism.

(٢) الأمومة عند العرب صفحة ٣٥ .

(٣) كما يقال إن أم قضاة مات عنها ماث بن حمير وعى حمل ، فتزوجها معد بن عدنان فولدت قضاة على فرته فنبتة فنسب إليه (صبيح لأعسى ج ١ ص ٣١٦) .

صراحة إن انتشار زواج المشاركة أدى إلى انتشار الطريقة الاصطناعية لانتساب الولد إلى أبيه حيث قيل إن القافة كانت تعين لكل ولد والدا^(١) . أما القياس على أن زواج المشاركة أقدم أنواع الزواج كلها فليس لدينا ثبوت تاريخي على ذلك ، أما الواد فلم يكن موجوداً عند أكثر القبائل ، ولا يؤدي إلى قلة عدد البنات ، بل ولا إلى الزواج الخارجي عند صاحب الأمومة نفسه .

وقصارى القول أن الطوتمية من وجهتها الاجتماعية ليست موجودة في آثار العرب الجاهلية . فلننظر ما إذا كان شأن العرب بإزاء الطوتمية في وجهتها الدينية .

تتلخص مظاهر الطوتمة باعتبارها الديني فيما يلي :

- (١) القبيلة تتسمى باسم الحيوان .
- (٢) القبيلة تتخذ حيواناً أباً لها وتعتقد أنها سلالة منه .
- (٣) صاحب الطوتم لا يؤذى طوته ولا يأكله إلا إذا عضه الجوع .
- (٤) يحرم اللمس والنظر إنيه ويحرم التلفظ باسم الطوتم .
- (٥) إذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه .

(٦) الطوتم يدافع عن قبياته في ساحة القتال ، وينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامات مثل الطيرة .

(٧) عبادة الطوتم .

(١) نعم كانت العرب تسمى باسم الحيوان والنباتات ، وهاك بعض أسماء القبائل :

بنو أسد ، بنو جعدة ، بنو ضب ، بنو فهد ، بنو بدن ، بنو جعل ، بنو ضبعة ، بنو كلب . بنو بكر ، بنو حذاء ، بنو عضل ، بنو نعام ، بهته ، حمامة ، عنز ،

(١) صحيح البخاري الجزء السادس « باب النكاح » .

نمر ، ثعلب ، حنش ، غراب ، وبر ، ثور ، دُوُل ، فهد ، هوزن ، جحش ، دب ، قرد ، يربوع ، جراد ، ذئب ، قنفذ ، ظبيان ، عقاب^(١) ، أوس .
وزد على ذلك قريشا بمعنى (الحوت) ، ولحما بمعنى (الحوت) أيضاً ، وحمير جندب ؛ ومن النبات حنظلة والنبوت^(٢) ، ومن أجزاء الأرض فهر وصخر^(٣) ،
وفي تعليل هذه الأسماء رأيان : الأول أن هذه الأسماء ألقاب على زعم علماء
أنساب العرب ، وكانت تطلق على أشخاص تاريخية معروفة انتقلت منهم
بالتسلسل إلى خلفهم ، ثم أصبح كل منها لقباً لعشيرة أو قبيلة . مثال ذلك أن
بنى كلب اتخذوا لقبهم عن شخص تاريخي معلوم وهو كلب بن وبرة بن ثعلبة
جد قضاة^(٤) . والثاني أن لهذه الأسماء — على زعم بعض المستشرقين — معاني
دينية ، وأن لها علاقة بعبادة الحيوانات كما هو مشاهد في المذهب الطوتمي .

أما ما يتعلق بالقول الأول فهاك ما قال عنه المستشرق الشهير نولدك :
« وقد حان للعلماء أن ياتوا وراء ظهورهم تلك الآراء الصبغانية التي تحاول أن تقنعنا
بنسب الأنساب العربية التي لفقها محمد الكلابي وابنه هشام وغيرها ايبينوا أن
صلة القرابة بين العائلات العربية المعاصرة لهم والقبائل القديمة خالية من كل
تلفيق وتزوير ، أمن المعقول ياترى أن تنسب جميع قبائل بنى قيس النازلة في
أواسط بلاد العرب إلى شخص واحد هو قيس المتوفى ، كما يزعمون ، قبل ظهور
المسيح بمدة قديمة ، واننى عندى أنه لا أحد من الشعوب والقبائل العظيمة يعرف
حقيقة الشخص اننى ينتسب إليه^(٥) » ، هذا قول المستشرق الشهير في أنساب

(١) أنساب العرب المقدماء (جورجى زيبان) .

(٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٢ .

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٤ .

(٤) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٦ .

(٥) الأمومة عند عرب ص ٥ — أخذت ترجمته من صاحب الأمومة الذى نقله من :

Zeitscher der Soutischen "Morguel".

العرب . وأما الأستاذ جورجى زيدان فقد قال : « ومع اعتقاداتنا لا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الأمور الموضوعة ، إذ لا يتأتى التواطؤ إلى هذا الحد ، نعم هنا اختلاف فى أسماء الرجال والقبائل ، وتلفيق وتزوير فى الروايات ، ولكن وجود هذا الاختلاف لا يدل على فساد النسب من أسامه ، كما أن اختلاف الرواة فى تفاصيل إحدى الوقائع التاريخية لا يدل على أنها لم تقع ^(١) » .

أما أنا بصفتى باحثاً فى أساطير العرب ، فإنى لا أرى داعياً لتصديق الأنساب أو لتكذيبها ، وذلك لسببين ، أولاً : أن فكرة الأنساب الموجودة ليست بفكرة بدوية ، بل هى مختاطة باليهودية ، وكثير منها موجود بالتوراة ، ودليل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا ^(٢) » . فيظهر من هنا أنه مر على العرب حين من الدهر لم يكن لهم فيه علم بالأنساب ، ومما لا ريب فيه أنهم استكثروا التسمية بالحيوان حتى فى عصر قبيل الإسلام ، فقد روى أنه لما هجر بنو طى من الجنوب إلى نجد والحجاز نزلوا عند قبيلة تسمى بنى أسد ^(٣) ، وثانياً : لا يهمننا فى بحثنا هذا دلالة هذه الأسماء على أشخاص تاريخية معينة ، فيكفيها أنها تطلق على مولود الانسان لسبب من الأسباب ، وكل ما يهمننا أن نعرف السبب فى تلك التسمية ، فقد اختلف المفسرون فى المقصود من تلك التسمية ، فقال بعضهم إنها ليست بأسماء ، بل ألقاب لوحظ فى أصحابها التشابه بينهم وبين الحيوان الذى سموا بأسمائه ، وقال صاحب لسان العرب : إنهم كانوا يسمون الأولاد باسم الحيوان ظناً منهم أنه يحفظهم من أعين الإنس والجن ،

(١) أنساب العرب القدماء (جورجى زيدان) .

(٢) ابن خلدون ١ المجلد الأول ص ١٠٩ .

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٣٣٠ ومعجم البلدان « أجا » .

وهذا ما يسمونه بالنقيير ؛ وقيل لأبي دقيش الأعرابي لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم أحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا ، وعبيدنا لأنفسنا^(١) ، كأنهم قصدوا بذلك التفاؤل ، فظهر من هنا أن هذه الأسماء لم تكن بألقاب ، بل كانت أسماء سمت بها العرب إما مشابهة وإما صيانة من خطفة الجن ، فإذا كان الغرض من التسمية المشابهة كما قيل فيكون الشبه بطريق القياس في الصفة أو في الصورة ، أما الشبه في الصفة فمعرفة متعذرة وقت الولادة ، وإذا كان الغرض من الشبه المشاكلة والمماثلة في الصورة ، فليست التسمية إلا جريا مع عقيدة العرب أن الابن يشبه أبويه أو أخواله ، وذلك بسبب الدم المشترك الذي يجري في شريانه ، كما قيل إن القافة كانت تعين لكل ولد والدًا معتمدة في ذلك على ظواهر خارجية ، ويؤيده ما ورد في الخرافة التي تقول (في العرب قوم يقال لهم الضبعيون ، لو كان في قفل فيه ألف نفس وجاء الضبع لا يقصد أحدا سواه^(٢)) ، وإن كان العرب يريدون بتلك التسمية تفاؤلا تارة واستعاذة تارة أخرى ، فهذا يدل على تقديس الحيوان ، وهو أيضاً من مرايا الطوتمية .

وإذا انتقلنا إلى القول الثاني في وجهة تسمية الحيوان نرى أن المستشرقين ذهبوا إلى أن تسمية بعض القبائل بأسماء الآلهة التي كانت تعبدها لم يكن بالأمر النادر عند العرب ، فكم من شخص بل كم من قبيلة عرفت باسم الإله الذي كانت تعبده ، مثال ذلك أن بني هلال وبدر وشمس ينتسبون — ولا شك — إلى تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها قبل الإسلام . ومن هذا القبيل بنو غنم ونهم وكلها مأخوذة عن أسماء تلك الآلهة التي كانت تعبدها هذه القبائل ، فيستنتج من

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٣ .

(٢) حياة الحيوان المجلد الثاني ص ٦٥ .

هذا بطريق القياس أن الحيوانات التي تنسب إليها بعض قبائل العرب كانت في الأصل معبودة عندهم .

(٢) لكن القبيلة الطوتمية قبيل تقديس الطوتم تعتقد أن لها علاقة بأب حيوانى ، فهل كان للعرب اعتقاد مثل هذا يا ترى ؟ كلا ، ما وجدنا خرافة صريحة تدل مباشرة على أنه من نسل الحيوان أو النبات ، ولكن سنبين الخرافة التي تدل على أن العربي كان يعتقد بعلاقة بينه وبين الحيوان كما قال الجاحظ : « قلت مرة لعبيد الكلابي وأظهر من حب الإبل والشغف بها ما دعانى إلى أن قلت له : أينها وبينكم قرابة ؟ قال : نعم خؤولة ، إني والله ما أعنى البخاتى ولكنى أعنى العرب التي هي أعرب . قلت له : مسخك الله تعالى بعيرا ، قال : الله لا يمسح الإنسان على صورة كريم ، وإنما يمسحه على صورة أئيم » ^(١) نعم إن مثل هذه الفكرة الشاذة لا تدل على عقيدة سائدة عند أهل البادية جميعاً ويؤكد ذلك قول المسعودي ^(٢) « وقد زعم كثير من الناس أن الحيوان الناطق ثلاثة أجناس : ناس وبنناس وبنساس — وقالوا إن وجوههم على نصف وجوه الناس » . وعن عبد الله بن كثير بن عقير المصري عن ابنه يعقوب بن الحارث بن لحيم عن شيبه بن الحارث التميمي قال : « قدمت الشحر فنزات على رأسها فتذاكرنا النساس فقلت : صيدوا لنا منها فلما رجعت إليه إذا بنساس منها مع بعض أعوانه المهرة ، فقال لى النساس : أنا بالله وبك ، فقلت لهم : خلوه فخلوه ، فلما حضر الغذاء قال : هل اصطدتم منها شيئاً ؟ قالوا : نعم ، ولكن خلاه ضيفك ، قال : استعدوا فإننا خارجون في قنصة أخرى ، فلما خرجنا إلى ذلك السرح خرج منها واحد يعدو ، له وجه كوجه الإنسان وشعرات في ذقنه ومثل السرة في صدره ، ومثل رجل الإنسان

(١) الحيوان للجاحظ المجلد الرابع ص ٥٣ — مطبعة الحميدية .

(٢) المسعودي المجلد الأول .

رجلاه ، (فهذا الوصف ينطبق على القرد تمام الانطباق) . وأغلب الظن أن هذه الفكرة بعد امتزاجها بفكرة البلاد المتجاورة ظهرت في شكل شق وسطيح ، فانتسب إليها من العرب بعض الأفراد والقبائل كما قال الألوسي^(١) : « كان الشق بن أنمار بن نزار هذا شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وكذلك كانوا يعتقدون في سطيح بأنه ابن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة »^(٢) . ويقال إنه كان وجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عنق وكان في عصره من أشهر الكهان .

بل إذا التفتنا إلى تصور الجن عند العرب ، تظهر الفكرة الطوتمية بأجلى مظاهرها . فالجن في العقيدة الجاهلية خلق من بيضة كما قال المسعودي^(٣) : « وما ذكره أهل التاريخ والمصنفون لكتب البدء كوهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهما أن الله عز وجل خلق الجن من نار السموم ، وخلق منه زوجته ، كما خلق حواء من آدم ، وأن الجن غشيها فحملت منه ، وأنها باضت إحدى وثلاثين بيضة ، وأن بيضة تفاقمت من تلك البيضة قطربة وهي أم القطارب وأن القطربة على صورة الهرة وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مرة ، وأن مسكنهم الجزائر وأن الغيلان من بيضة أخرى مسكنهم الخرابات والقلوات ، وأن السعالى من بيضة أخرى وسكنوا الحمامات والمزابل ، وأن الهوام من بيضة أخرى وسكنوا الهواء في صورة الحيات ذوات أجنحة يطيرون هنالك ، وأن الحماميص من بيضة أخرى »^(٤) . فهذه الرواية تدل صراحة على كون الجن من نسل الحيوان . فما الذى

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٧٨ .

(٢) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٨١ .

(٣) صروج الذهب ص ٣٢٠ .

(٤) بلوغ الأرب .

يخلق من البيضة ولا يكون من الحيوان يا ترى؟ وكذلك زعمُ العرب « أنه ليس بهذه الأرض اليوم أحد إلا الجن ، والإبل الحوشية وهي عندهم الإبل التي ضربت فيها فحول إبل الجن فالحوشية من نسل إبل الجن^(*) » تشبه عقيدة الأمم الهمجية التي تقول إن الحيوانات كانت تملأ الأرض قبل وجود الإنسان^(١) . وزد على ذلك قول الألوسى : « إنهم يعتقدون في الديك والغراب والحمامة والورل وساق حر والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والنعام والحية اعتقادات عجيبة . فمنهم من يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقاً ، ومنهم من يزعم أنها نوع من الجن^(٢) » . ولا يخفى أن هذه الحيوانات من أشهر أسماء القبائل والأفراد عند العرب كما ذكرنا سلفاً ؛ ويؤيده ما ورد في خرافات أخرى لا تكاد تنحصر ؛ فقل إن السعلاة إذا هي ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفار ، قال وربما اصطادها الذئب بالليل فأكلها^(٣) ، ويقال إن تأبط شرا رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول طول الطريق عليه فلما قرب من الحى ثقل عليه فرمى به فإذا هو الغول^(٤) . وكذلك مقاتلة علقمة بن صفوان بن أمية مع الشق قيل إنه ضرب كل منهما صاحبه فخرا ميتين^(٥) . وقد بينا بهيمية الشق في خرافة سابقة . وفي أسطورة حرب بن أمية — ومرداس بن أبي عامر الشخصيتان التاريخيتان أنهما أحرقا مغارة ناوين الزرع فيها فطارت الشياطين

(*) المسعودي ج ٣ ص ٣٩١ .

(١) وهكذا تكلم العرب في الجن أنهم كانوا في الأرض قبل خلق آدم والخلافة في الأرض (مروج الذهب) .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٣) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٤) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٥) مروج الذهب ص ٣٢٥ .

من تلك المغارة وما هي إلا الحيات البيضاء^(١) .

ونستطيع أن نقول بعد هذا إن هيئة الجن في الروايات المذكورة تدل صراحة على كون الجن من الدواب والسباع والهوام . نعم أحياناً نجد الجن على صورة الإنسان ، وتارة على شكل غريب الخلق ، لكن التصورات من هذا السبيل لم تكن تصورات عربية خالصة ، وذلك لأن العقلية العربية كما بينا لم تجرد المادة في بداوتها ، لذلك كان تصور الجن كراكب النعامة من أحدث التصورات كما قاله كوك^(٢) أيضاً . وأما القول بأن سليمان عليه السلام رأى الجن على أشكال خارقة للعادات^(٣) فقد يكون فكرة إسرائيلية كما يظهر من انتسابه إلى سليمان عليه السلام .

وخلاصة القول أن الجن والغول والسعلاة كانت من الحيوان في صميم الفكرة العربية . ولذلك نرى الباحثين عن معنى الجن عند العرب أدخلوه في نوع الحيوان متأثرين بفكرة البادية وقالوا : « إن الغول حيوان شاذ^(٤) » .

« وإذا نظرنا إلى أصل نشوء الجن عند العرب نشعر أن مساكن الجن تشبه مساكن السباع التي كانت العرب تخاف منها ، فكل شيء مخيف أو صوت غريب كان متعلقاً بالجن في بادية العرب . فهذه الفكرة إما أن تكون قد بدأت في بادية العرب نفسها ، وإما أن تكون قد جلبت من الخارج ؛ فإذا كانت مجلوبة^(٥) . فليس لنا أن نبحث فيها بل نتركها لفرصة أخرى . أما إذا كان منشؤها في البادية نفسها فأغلب الظن أن تكون بذور تلك الفكرة هي أن

(١) الأغاني ج ٦ ص ٣٤١ .

(٢) Notes on the Religion of the semites "Smith By Cook".

(٣) عجائب المخلوقات قزويني .

(٤) عجائب المخلوقات ٢٠٢ .

(٥) وهو المحتمل .

العربي كان يخاف بعض الخرافات والقلوات ، ويستوحش من سماع الصدى فيما بين الجبال ، كما قيل : « إن الأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف بل يتعجبون من رد ذلك ^(١) . وكذلك كان العربي يخاف من السباع ويظن فيه روحا شريراً ويظهر هذا فيما يقال من أنه إذا نزل العربي في واد مخيف كان يعود بعظيم هذا الوادي . قال شاعر استعاذ ومعه ولده فأكله الأسد :

قد استعدنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعادي
فلم يجرنا من هزبر عادي ^(٢)

ولم يكن عظيم الوادي هذا في بادئ الأمر إلا صنفاً من السباع . وقد قيل خرجنا في سفرة ومعنا رجل فأنهينا إلى واد فدعونا بالغذاء فد الرجل يده إلى الطعام فلم يقدر عليه ، وهو قبل ذلك يأكل معنا في كل منزل ، فخرجنا نسأل عن حاله ، فلقينا رجلاً طويلاً أحول مضطرب الخلق في زى الأعراب ، فقال لنا : ما لكم ؟ فأنكرنا سؤاله لنا ، فأخبرناه خبر الرجل ، فقال : ما اسم صاحبكم ؟ فقلنا : أسد ، فقال : هذا واد قد أخذت سباعه فارحلوا ، لو قد جاوزتم الوادي استمر صاحبكم وأكل ^(٣) . ثم تطورت الفكرة إلى أن النفس التي كانت طيراً في تصور العربي القديم أصبحت جنا من الجن الخيالية وصارت من شياطين الشعراء فيما بعد . ومع أن فكرة الجن تطورت عند العرب إلى حد بعيد ، فقد بقي في تصور الجن جزء من الحيوانية ، فإذا تحوأت السعلاة في صورة المرأة مثلاً فقد تكون رجلاً رجلاً رجلى حمار أو عنز أو على الأقل كما قال الشاعر :

يا رجل عنزا انهقى نهيقاً لن تنزلى السبيل والطريقا ^(٤)

(١) كتاب الأصنام للكلبي .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٢٦ .

(٣) أعاني المجلد الثالث ص ٣٧ — طبعة دار الكتب المصرية .

(٤) مروج الذهب ص ٣١٥ .

وكان العربي يرى في الجن أوفى هذا الحيوان كل ما يراه المتوحش في طوتمه ؛ فكان ينسب الأفراد والقبائل إلى نسل الجن ، كما قيل كانت باتيس ملكة سبأ وذو القرنين ^(١) ملك الأرض من ولد الجن ، وكذلك كانت قبيلة بني مالك وبني شيصيان وبني يربوع من قبائل الجن . ومع كل هذه المائلة بين الجن والحيوان وطوتم المتوحش فإننا نرى صفات الجن تختلف عن صفات الحيوان في بعض الأساطير القديمة ، كما قيل إن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين ومكشت عنده دهرًا ، فكانت تقول له : إذا لاح البرق من جهة بلادى وهى جهة كذا فاستره عنى ، فإنى إن لم تستره عنى تركت ولدك عليك وطرت إلى بلاد قومي ؛ فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره ^(٢) . فانظر إلى تصور الجن هنا مع كونه إنسانًا ذا لحم وعظم ضخيم يطير في الهواء ويسكن في ناحية يلوح فيها البرق . ولا إخال في هذه الأسطورة شبه تأثر خارجي ، لأن مضمونها يشير إلى قدمها وبداءتها .

ومع اعترافى بكون هذه الخرافة عربية أرى فيها تطوراً في تصور العربي . فلا أغالى إذا قلت إن تصور الجن لم يبق على حيوانيته القديمة في جميع تطوراته من عصر البداوة إلى عصر الإسلام . ولكن هذا لا يمنع من كون الجن حيواناً في تصور العربي القديم كما ذكرنا آنفاً . ولست أول من يقول بهذا ، بل سبقنى إلى هذا الاستنباط « اسمث » ^(٣) الذى لا يشك في طوتمية الجن ، اسكنى مع اعتقاده بكون الجن حيواناً في تصور العرب القدماء ، لا أوافقـه على كون الجن طوتما عند العرب ، وذلك لأن الطوتم كان من أصحاب المتوحشين ، وكان للطوتم أتباع يحمونه ويحميهم ، أما الجن منذ نشأتها فهو شيء مخيف ومنفر

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٣) The Religion of the semites.

للناس ، وقد استعازت العرب من الجن ، ولم يرجوا الخير منه ، لا كما يفعل أهل الطوتم الذين كانوا يلجأون إليه في الساعة الحرجة . فكان الجن يمثل قوة الشر ، وكان أشجع شبان العرب ، مثل تأبط شرا وعاقمة بن صفوان يقاتلونه ، وكانوا يغنون نشيد الشجاعة إذا تغلبوا عليه ، ومن هذا نقول إن الجن كان من أعداء القبيلة لا من آباءها . وفضلا عن ذلك فإن الجن كانت تمثل الحيوان في المخيلة العربية ، لكن العربي كان يفرق بين الجن والحيوان في عالم المشاهدة ، إذ لم يكن كل صنف من الحيوان جنا في تصويره ، وزد على ذلك أن السباع لم تكن وحدها من الجان ، بل كانت الإبل أيضاً من الجن ، ولو أنها ليست من الحيوانات الخيفة ، وكذلك نوعية الجن لم تكن محصورة في الحيوانية ، بل كل شيء مخيف أو صوت غريب أو بناء عظيم^(١) يستأفت الأنظار كان متعلقاً بالجن .

كل هذا يهدينا إلى أن الجن لم تكن طوتما عند العرب ، بل الحيوان المقدس تطور واختلط تقديسه بالجن التي عرفها العربي بعد اتصاله بالبلاد المجاورة . ويؤكد هذا ما قيل إن كلمة الجن ليست عربية ، بل أصلها (Aggen)^(٢) أى المجير أو الحافظ أو الحامي ، وقد وجدت الكلمة في بعلبك (Heliopolis) مع اسم الأسد (Lion - gennaïos) فأصبحت هي كلمة الجن المعروفة عند العرب^(٣) .

وقصارى القول أن الجن لم تكن طوتما عند العرب ، وإنما الحيوان هو الذى قد تمتع بميزات مثل الميزات الطوتمية ، فكان العربي يلاحظ في تقديس الحيوان كل ما يراعيه أهل الطوتم بإزاء طوته .

(٣) صاحب الطوتم لا يؤذى طوته ولا يأكله إلا إذا عضه الجوع .

(١) انظر الإكليل .

(٢) Religion of Palestine. P. 220. Foot-note.

(٣) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٥٨ و ٣٥٩ .

إن العربي كان يجتنب قتل الحيوان ظناً منه أنه لو قتله لجوزى به كما قال الألوسي^(١) :

« إنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن تأخذ بثأره ، فيأخذون روثه ويفنونها على رأسها ويقولون « روثه راث تأثرك » . وإذا طالت علة الواحد منهم ظنوا به مسا من الجن . وإذا قتل حية أو يربوعاً أو قنفذا صنعوا جمالاً من طين وجعلوا عايتها جوالق وملاًؤها حنطة وشعيراً أو تمرّاً ، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة الغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك ، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال ، فإذا رأوا أنها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عايتها من الميرة قالوا قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض ، وفرحوا وضربوا بالدف ، وإذا كان الشيء المقدس من النبات حرموا إحراق عيدانه كما ورد في قصة مرداس^(٢) . ولا يظن ظان أن العربي لم يحرم الأكل من أى حيوان مع أنه من أهم مقومات الطوتمية ، إذ الحقيقة أن العرب مع أنهم اضطروا بطبيعة البلاد أن لا يحرموا شيئاً من الأكل لكنهم قد حرموا أكل اللحم في بعض المواسم كما قال البلخي : « وكانت الحمس (من قريش) لا يسمنون السمن ولا ياقطون الإقط ولا يأكلون اللحم أيام الموسم^(٣) » وفي بلاد قحط وفاقه كبلاد العرب لا يستطيع الإنسان أن يمنع عن الأكل ولو كان من المحرمات ، فليس يستغرب ما قيل من أن بنى حنيفة عبدوا إلهاً من حيس ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ، فقال بعضهم :

أكلت حنيفة ربها زمن التقم والجاعة

(١) بلوغ الأرب .

(٢) أغاني ج ٦ ص ٣٤١ .

(٣) البدء والتاريخ للبلخي الجزء الرابع الفصل الثاني عشر ص ٣٢ .

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعه^(١)
وزد على ذلك الوصيلة والسائبة التي كانت تسبب للأصنام فتعطى للسدنة
ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ، وقيل تترك لآلهتهم :
(٤) يحرم المس والنظر إلى الطوتم كما يحرم التلفظ باسمه .

كان العرب يحرمون التلفظ باسم الطوتم ، ويظهر هذا في أنهم كانوا يكتفون
عن النهوش أو الملدوغ بالاسليم ، ويسمون النعامة بالطاع والجلم ، كما كانوا يلقبون
الأسد بأبي الحارث ، والثعلب بابن آوى ، والضبع^(٢) بأم عامر ، وسموا الغراب
بجاتم^(٣) ، لكن ليس لدينا أدلة بينة صريحة على ذلك الأمر .

(٥) إذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه
كان العربي يدفن الحيوان مثلاً يدفن الإنسان ويحزن عليه حزنه على أخيه ،
يؤيد هذا ما روى من أن بني الحارث كانوا إذا وجدوا غزالاً ميتاً يغطونه
ويكفونونه ويدفنونه ، وكانت القبيلة تحزن عليه إلى ستة أيام^(٤) . وروى
السهيلي في فضائل عمر بن عبد العزيز : « بينما عمر بن عبد العزيز يمشى في أرض
فلاة فإذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودقنها » . وقال أيضاً : إنه كان في
نفر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يمشون فرفع لهم إعصار ، ثم جاء إعصار أعظم
منه ، ثم انتشع فإذا حية قتيل ، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقه ، وكفن الحية
ببعضه ودقها^(٥) . وقال كوك (Cook) : إن القول بأن الحية كانت من الجان

(١) البدء والتاريخ للبلخي الجزء الرابع الفصل الثاني عشر ص ٢٣ .

(٢) تبرزى شرح الحماسة ص ١٩٣ .

(٣) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٦ .

(٤) Totemism & Exagomy. P. 15.

(٥) الروض الأنف المجلد الأول ص ١٣٦ — طبعة الجمالية بمصر .

المسلمين هو تفسير حديث وضعه الرواة لإثبات وهم قديم .^(١)

(٦) الطوتم يدافع عن قبيلته في ساحة القتال ، وينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامة مثل الطيرة .

كان الحيوان يحمي العرب كما كان الطوتم يحمي أهله ، فقد قيل : « خرج عبيد بن الأبرص يريد الشام ، فلما كان ببعض الطريق عرض له شجاع يلهث عطشاً ، فعمد عبيد إلى رابية ونزل عن بعيره وسقى الشجاع حتى روى ، ثم مضى حتى أتى الشام وقضى حاجته وانصرف ، فإذا في بعض الليالي أضل بعيره ، ونكب عن الطريق ، وساء ظنه ، فرأى بعيراً فاستوى على ظهره ، فلم يلبث أن رأى^(٢) باب داره ، وكان على مسيرة عشرين مرحلة » . وحكى بعض الرواة أنه نزل واديا بغنمه ، فسلب ذئب شاة من غنمه ، فجاء الذئب بالشاة وتركها . ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل تذكر أسطورة متأخرة أن العربي رأى الإله « يغوث » يدافع عن قبيلته في ساحة القتال كما قال الشاعر :

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجزناهم قبل الصباح^(٣)

كذلك نجد العربي يتفائل بالطير وبنباح الكلاب على مجيء الضيوف ، ويتشاءم من الثور الأعضب (وهو المكسور القرن) ومن الغراب كما قيل أشأم من غراب البين . ولم يكن النبال والطيرة علامات مرجحة ، بل يرى كوك أن الحيوان المتفائل به كان يعلم ما كان يشير إليه وقد قال قيس بن ذريح^(٤) .

ألا يا غراب البين ويحك نبئني بعلمك في لبني وأنت خبير

(١) Religion of semites By smith P. 444 Foot-note.

(٢) عجائب المخلوقات للقزويني ص ٣١٣ .

(٣) كتاب الأصنام .

(٤) الأعاني المجلد الثاني ص ٨٩ و ٩١ .

(٧) عبادة الطوتم .

تطورت الطوتمية عند بعض الأمم مثل المصريين القدماء إلى عبادة حيوان الطوتم ، وسنرى هل عبد العرب الحيوان كعبادة المتوحش الطوتم .
نقل الدميري^(١) عن الاستيعاب للحافظ أبي عمر بن عبد البر « أن العرب كانوا يأتون بالشاء البيضاء فيعبدونها ، فيجئ الذئب فيأخذها ، فيأخذون أخرى مكانها » . وذكر السهيلي في قدوم وفد طي على رسول الله (صائم) قال : خرج نفر من طي يريدون النبي (صائم) بالمدينة وفودا ومعهم زيد الخيل و... فعلقوا رواحهم بفناء المسجد ودخلوا ، فجلسوا قريباً من النبي (صائم) حيث يسمعون صوته ، فلما نظر النبي (صائم) إليهم قال : إني خير لكم من العزى^(٢) ولاتها ، ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله ، وما حازت مناع (الجبل) من كل ضار غير تقاع . ومن أمثال ذلك ما كان من عمرو بن حبيب الموصوف بذي الكيود (أى كثير الكيد) ، فإنه أغار على بني بكر فأصاب سقبا كانوا يعبدونه من دون الله ، فأراد إغاضتهم فنحره وأكله^(٣) ، وفي ذلك يقول أحمد البدوي الشنجيطي عند ذكر محارب وأبو عقيله :

وانسب خبر يهم ذو الكيود آكل سقب بكر المعبود

ومن هذا القبيل ما قال ابن إسحاق : « وكان رثام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه ، إذ كانوا على شركهم ، فقال الخبران للتبع : إنما هو شيطان يفتيهم بذلك فخل بيننا وبينه ، قال : فشأنكما به ، فاستخرجنا منه فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود فذبجاه ، ثم هدم ذلك البيت »^(٤) .

(١) حياة الحيوان للدميري المجلد الثاني ص ٣٥ .

(٢) الروض الأنف المجلد الثاني ص ٣٤٢ للسهيلي .

(٣) أديان العرب للجارم ص ١٢٤ .

(٤) سيرة ابن هشام في حديث غزوة تبع إلى يثرب ص ٢٨ .

ولم يقتصر الأمر على بيت الرثام ، بل وجدت بيوت كثيرة على أسماء الحيوان في شبه الجزيرة ، من ذلك ^(١) دارة الذئب بنجد في ديار بني كلاب ، ودارة الذئب لبني الأضبط ، ودارة الغزير ^(٢) لبني حارث بن ربيعة بن أبي بكر ابن كلاب ، ودارة الكباش للضباب ، وبني جعفر ، وكذلك دارة الجدى ، ودارة الخنزير ، ودارة العجلة ^(٣) ، قيل هي أول دار بنتها قريش بمكة قبل دار الندوة .

هذه الروايات تهدينا إلى أن العربي عبد الحيوان الحي نفسه ، ولم ينحت الأصنام على صورة الحيوان لأنه كان جاهلاً بصناعة الرسم والنحت . نعم لقد وجدت الأصنام على صورة الحيوانات في شبه الجزيرة ، ولكن معظمها بل كلها كان مجلوباً من البلاد المجاورة . والأصنام التي وجدت على صورة الحيوان ثلاثة :

- (١) النسر وكان على صورة النسر ^(٤) فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع ، تعبده حمير ومن والاه ، فلم يزالوا يعبدونه حتى هوّدهم ذونواس ^(٥) .
 - (٢) ويعوث وكان على هيئة الأسد ^(٦) ، وكان بأكمة في اليمن يقال لها مذحج ، تعبده مذحج ومن والاه ^(٧) .
 - (٣) ويعوق وكان على صورة الفرس ^(٨) ، فكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان ومن والاه من أرض اليمن ^(٩) .
- أما الكلبي فلم يذكر هيئة هذه الأصنام ، بل قال : « كان وُدّ وسواع

(٢) معجم البلدان المجلد الرابع .

(٤) Kinship & Marriage.

(٦) Kinship & Marriage.

(٨) كتاب الأصنام ص ٥٧ .

(١) معجم البلدان المجلد الرابع ص ١٨ .

(٣) معجم البلدان المجلد الرابع ص ١٠ .

(٥) كتاب الأصنام ص ٥٨ .

(٧) كتاب الأصنام ص ٥٧ .

(٩) Kinship & Marriage

ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين^(١) . واكتفى بقوله في « سواع » : ولم أسمع لهذيل في أشعارها له ذكرا^(٢) . وقال في « يعوق » : ولم أسمع همدان سميت به ولا غيرها من العرب^(٣) . وقال في « نسر » : ولم أسمع حمير سميت به أحدا^(٤) . فظهر من هذه الرواية أن الأصنام هذه لم تعبد في الحجاز ونجد ، فلا غرو إذا لم يجد الكلبي أثرهم في أسماء العرب ولا في أشعارهم .

أما جورجى زيدان فقال : إن « يغوث » مجلوب من مصر ، وعلل ذلك بقوله : وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد أولبوة يسمونه « تغوت » ، ولا يخفى ما بين هذا اللفظ واللفظ « يغوث » من المشاكلة الصورية إذ اعتبرنا أن العرب كانوا يكتبون بلا نقط^(٥) ، فكان الصنم « يغوث » مجلوباً من الخارج ، وعبدته العرب ، كما يظهر من أسماء مثل عبد الأسد ، وعبد يغوث ونحو ذلك . فانتشرت عبادة الإله الأسد في نجران وفي شمال اليمن ، ودانت قبيلة مذحج وبطنها وأفخاذها بدين الإله الأسد في مدينة جرش ، على وادى بيشه في شمال اليمن ، ويؤيده ما ورد في قصة حرب الرزم التي نشبت بين همدان وممراد للحصول على ذلك الصنم . وخلاصة القول أن « يغوث » لم يكن مجلوباً فحسب ، بل لم يعبد في الحجاز ونجد ، وهما البلدان اللذان حصرنا بحثنا فيهما . زد على ذلك أن « يعبوب » صنم لجديلة طى ، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد فعبدوا « يعبوب » بعده . وزاد زكى باشا على ذلك قوله : ربما كان هذا الصنم على هيئة الفرس^(٦) . وذكر « سمث » صنما حيوانيا جديدا عند العرب وهو اليربوع فقال وهو يستنبط من قصة التوراة التي تقول بتقهقر سنحاريب ،

(١) كتاب الأصنام ص ٥١ .

(٢) ص ١ (٣) ص ١٠ (٤) ص ١١ .

(٥) أنساب العرب القدماء . (٦) كتاب الأصنام ص ١٣ .

ومن الأساطير التي تقول إن الفأر أهلك عساكر السوريين .
أغلب الظن أن عبادة « أبولو » (Appolo) من حيث هو الذي يبعث
الوباء (Scminthens) تدل على أنها سامية الأصل^(١) ، ولكن الأصنام
الحيوانية مثل يعوق ونسر ونحوهما لم تترك أثراً في حياة العرب البادية . وقصارى
القول أن العربي رأى في الحيوان كل ما اعتقد المتوحشون في طوتهم ، إلا أن
صاحب الطوتم يقدس طوته المخصوص ويتجنب أذى الطوتم الذي ينتسب
إليه ، أما العرب فلا تعرف حيواناً مخصوصاً لقبيلة ما بعينها ، حتى تقول إن قبيلة
الذئب مثلاً كانت تحترم الذئب ، أو قبيلة النمر كانت تجنب قتل النمر ، وكذلك
لم تكن الجن طوتاً ولا أبا لقبيلة العرب ، لأن العربي لم يتمن الخير من الجن ، بل
خاف منها وذهب بعيداً عنها .

كانت العرب تقدس الحيوان وتعبده كما يقدسه ويعبد أهل الطوتم ،
لكن غرضهم في تقديس الحيوان وعبادته يختلف عما يقصد أهل الطوتم ، إذ كان
أهل الطوتم يرمون بعبادة الحيوان إلى إجلال الآباء وإكرامهم ، فكانوا مدينين
للطوتم بحياتهم ومماتهم ، لكن العرب لم تعتقد أن حياتها هبة من هبات إله
حيوانى ، ولا رأوا صلة رحم بينهم وبين الحيوان الطوتمى كما هي عقيدة المتوحشين ،
بل كان العربي يقدس الحيوان ويعبده لتحصل له البركة ، وشكراً لاستفادته منه
على مجرى عادة الرعاة جميعاً ، أما الأصنام مثل « يغوث » ، و « يعوق » ،
و « نسر » ، و « يعبوب » ، و « يربوع » ؛ فقد بينا أنها لم تعبد في بادية الحجاز
بل ما وجد أثر لها في حياة العرب الاجتماعية ، إن هي إلا أسماء سموها :

فهذا البحث يهديننا إلى أن العرب لم تتمتع بجميع الميزات الطوتمية ،
ومما لا نستطيع جحوده أنه اعتقد في الحيوان عقيدة تشبه الطوتمية ، فإذا كان

لا مناص من مرور التفكير البشرى بتطورات مثل الحيوى والطوتى كما قرره العلماء ، فلا يبعد أن تكون هذه الطوتمية عند العرب مثل الطوتمية التى وجدت عند قبيلة أرنوتا (Arunta) فى وسط أستراليا . وهى عبارة عن تقديس الحيوان وعبادته دون أن تكون وراثية ومبنية على الزواج الخارجى والأمومة ؛ أو بعبارة أخرى إن الطوتمية من الوجهة الاجتماعية لم توجد عند العرب القدماء ، ومما لا نتردد فيه أن الطوتمية من وجهتها الدينية كانت منتشرة فى القبائل العربية . ولا يظن ظان أن الطوتمية الدينية والاجتماعية متلازمتان ، ذلك لأنها منذ نشأتها كانت — على رأى فريزر — دينية بحتة ، ثم تفرعت . وقد وجدت بعض القبائل الطوتمية وليس لها حظ من الوجهة الاجتماعية كقبيلة أرنوتا .

الباب الرابع

آلهة العرب

الفصل الأول

نظرية بدء الوثنية في الرواية والدراية

عقلية الأمة تنضج وتبلغ رشدًا من التجارب التي تكسبها في تنازع البقاء ،
فقد رأينا أن التفكير يتدرج من المذهب الحيوي إلى المذهب الطوتمي ،
أما المذهب الفيتشي والمذهب الطوتمي فها هما إلا مذهب واحد في هيتين مختلفتين ،
وإذا أمعنا النظر فيهما رأينا أنهما في الحقيقة فرعا للمذهب الحيوي ، وذلك لأن
الإنسان الأول في المذهب الحيوي يتوهم حياة في كل شيء ، وفي المذهب الطوتمي
يحصّر الحياة في أشياء محدودة ، فلذلك تنقسم العقيدة الدينية إلى مذهبين :
الأول هو المذهب الحيوي ، والثاني هو مذهب تعدد الآلهة (Polytheism)
ويختلف الأول عن الثاني بأنه يرى في الجمادات والحيوانات شخصية خاصة بها ،
لكن الثاني يمثل الطبيعة في صورة الإنسان . أما ما يتعلق بتوزيع قوى الطبيعة
بين الآلهة ، وبإقامة الدولة الإلهية مثل دولة زيوس في أولمبس عند اليونان فهو
أرفع شأنًا وأعلى منزلة في تطور تعدد الآلهة ، وهو لا يحصل إلا بعد تقدم الحضارة
تقدما عظيما . ولا تنتقل المعيشة من حالة القنص والرحلة إلى حالة الزراعة والإقامة
إلا بالتدريج ، لذلك فإن الآلهة التي كانت لها ساطة في حالة البداوة لا تقنى في

دور الانتقال فناء تاما ، بل أكثرها يستمر إلى أن يبلغ مذهب تعدد الآلهة قمة مجده .

قلنا إن عقلية الإنسان لم تفرق بينه وبين الموجودات في طور المذهب الحيوى ، أما في حالة المذهب الطوتى فإن عقليته تقدمت وفرقت بين الجماد والحيوان ، ثم ارتقت فكرته بعد ذلك وفهم أنه يمتاز بالنطق وجوهر العقل ، وأنه يستطيع أن يعمل ما لا يستطيع الحيوان عمله ، فلما عرف شرفه هذا وفضيلته على غيره ، رد الآلهة الطوتية إلى أشكالها الحقيقية وأقام الأصنام على خلقته ، ولو أنه أبقى في هذه الأصنام جزءاً من الحيوانية السابقة ، ليكون رمزا يدل على أنه حيوان في الحقيقة . ولكن أعظم الأصنام في هذا الطور اتخذت شكل الإنسان وصورته ؛ وما أحسن ما قال الفيلسوف اكرينوفان (Exenophan) ساخرا^(١) « يتخيل الإنسان أن الإله يولد مثل الإنسان وله هيئة وصوت وجسد مثله وكذلك لو استطاع الثور والأسد والحصان أن تنحت الآلهة لرسمتها على شاكلتها ولجعلت أجسادها مثل أجسادها » ، لكن المسئلة التي تختلج في صدر الباحث لا تتعلق بصورة الصنم بل بغاية الإنسان من إقامة الصنم ، والداعى الذى حمله على عبادة الأوثان في مبدأ الأمر ، قال يوهيمروس (Euhemerus) : كانت الآلهة من أبناء آدم ، لكن مرور الزمان والأجيال كبر همهم ورفع شأنهم إلى درجة الآلهة ، وهذا ما ذهب إليه سيفج (Savage)^(٢) حيث قال : إن أول مظهر الدين « عبادة القبيلة الرب والأمير » Ancestor worship is The root of every religion . وهكذا قال سبنسر : « إن عبادة السلف أساس الأديان جميعاً » . وهذه هي العقيدة التي

B. 40. Introduction to Mythology by "Lwis spense". (١)

B. 15 Belief in God. (٢)

نجدها سائدة في الأمة العربية كما قيل : « كان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه ويطرحون عليه ، فقال رجل من بني قاييل بن آدم : يا بني قاييل إن لبني شيث دوارا يدورون حوله ويعظمونه ، وليس لكم شيء ، فنحت لهم صنما فكان أول من عملها ^(١) . وكذلك يقال كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين ماتوا في شهر ، فجزع عليهم أقاربهم ، فقال رجل من بني قاييل : يا قوم ، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أنني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً ؟ قالوا نعم ؛ فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ولقبها لهم ، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله ، حتى ذهب القرن الأول وعملت على عهد بروي بن مهلابل بن قيشان بن أنوش بن شيث ابن آدم ؛ ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول ، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ^(٢) فعبدوهم » . وقيل أيضاً غنم سليمان عليه السلام بنتاً لملك وكان لا يذهب حزنها ولا تزال تبكي ، فأمر سليمان الشياطين إجابة لطلبها أن يصوروا صورة أيها لتسليتها ، فعملوا لها مثل صورته ، وألبسوها ثياباً مثل ثياب أيها ، فكانت إذا خرج سليمان من دارها تسجد لها ^(٣) .

ولكن هذه النظرية لا تتفق مع عقلية العرب وتقاليدهم ، لأن العرب لم يرفعوا سدة البيت إلى درجة الآلهة ، ولم يقدسوا آباءهم وأمراءهم — هاك سدة البيت على رواية ابن هشام لما توفي إسماعيل بن إبراهيم ولي البيت بعده ^(٤) .

١ — ثابت بن إسماعيل . ٢ — مضاض بن عمرو الجرهمي :

(١) كتاب الأصنام ص ٥١ . (٢) كتاب الأصنام ص ٥٢ .

(٣) تاريخ ابن الأثير المجلد الأول ص ٩٢ .

(٤) سيرة ابن هشام في ذكر ولاية الكعبة .

- ٣ — عمرو بن حارث الغساني . ٤ — حليل بن حبشه .
 ٥ — غوث بن مر بن أد . ٦ — قصي بن كلاب .
 ٧ — عبد الدار . ٨ — هاشم بن عبد مناف .
 ٩ — المطلب بن عبد مناف . ١٠ — عبد المطلب بن هاشم .
 ١١ — عباس بن عبد المطلب .

ولم يعبد سادن من هذه السدنة ولا من سدنة أصنام أخرى مثل بنى لحيان (سدنة سواع) ، وبنى ثقيف (سدنة اللات) ، وبنى شيبان (سدنة العزى^(١)) . نعم قد عظمت الأموات وقدست في بلاد متعددة ، ولكن لم يكن الإله من جنس الإنسان دائماً ، ولا كل ميت تقدس وتحول إلى صورة الإله ، وإذا كان الأمر غير ذلك فكيف تعتبر عبادة بنى إسرائيل للعجل ، وعبادة العرب للجمل والكلب الأسود والشاة الحية والجن ؟ ليست هذه العبادة إلا وليدة الاستفادة واللذة والخوف ، ولذلك ذهب الناس في تعليل إقامة الأصنام مذاهب شتى ؛ وقالوا إن هناك علاقة بين آلهة الرعد والبرق والأحجار القداحة لما يزعمونه من أصلها السماوى ، وإن كانت أحجاراً بركانية أو ما يشبهها . والواقع أنه كان للنار أثر كبير في الحياة الاجتماعية عند المتوحشين جميعاً ، وكذلك كانت عند العرب ، ومن نيرانهم نار التحالف ، ونار القرى ، ونار المزدانة ، ونار الاستسقاء ، ونار الزائر ، ونار الغدر ، ونار السلامة ، ونار الحرب ، ونار الصيد ، ونار الأسد ، ونار السليم ، ونار الفداء ، ونار الوشم . ولقد كانوا يقولون للرجل ما نارك؟^(٢)

وكان العربى يستغرب من وجود النار فى الشجر ، ولذلك تقول العرب : « فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار » ، لأنهما أسرع اقتداحاً ، فقال سبحانه وتعالى ينبهم على ما كانوا يعنون به : « أفرايتم النار التى تورون أأنتم

(١) كتاب الأصنام . (٢) نهاية الأرب للنويرى .

أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » . ولم يقتصر الأمر على ذلك الحد بل نسجوا أسطورة حول النار وقالوا ^(١) : « لما قتل قابيل أخاه هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن جاءه إبليس وقال له : إنما قبل قربان هابيل وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فانصب أنت أيضاً نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت نار » .

وعبادتهم النار أن يحفروا أخدوداً مربعاً في الأرض ويحشوها ويملؤها وقوداً ثم لا يدعون طعاماً ولا شراباً ولا ثوباً ولا عطراً ولا جوهراً إلا طرحوه فيها تقرباً إليها ، وحرّموا إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها ^(٢) .

وإذا كان العربي يرى ناراً في الأشجار الخضراء ، وفي بطون الأحجار والجبال ، فليس بعيد أن يعتبر النار شيئاً قدسياً ، وطبيعياً أن يرى في الحجر شيئاً من السحر حينما يرى النار تحرق الأشياء إلا الحجر ، وطبيعياً كذلك أن يفضل الحجر على النار ويعظمه ويقده .

لكن النار وحدها لم تكن هي الضرورة الوحيدة في المعيشة ، وقد قلنا إن الإنسان بدأ حياته من تجارب بسيطة على قدر ضروريات محدودة ، وهذه الضروريات تنحصر بآديء الأمر في البحث عن قوت يمسك رmqه ، ثم تتسع وتكثر . وأهم احتياجات المعيشة البسيطة والبدائية أكل بسيط وشرب ومسكن يقيه البرد القارس وحرارة الشمس المحرقة . وغريزة الإنسان تميل إلى قضاء تلك الحاجيات وهي بدورها تحمل الإنسان على عبادة الشيء الذي استفاد منه كما قال بروديكيوس Prodicus ^(٣) ، في أول الأمر ظهرت أصنام القوى الطبيعية

(١) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ج ١ ص ٨٢ .

(٢) نهاية الأرب ص ١٠٥ .

(٣) Introduction to Mythology p. 42

التي استفاد منها الإنسان مثل النيل في مصر ، ثم أقيمت تماثيل للناس الذين خدموا الإنسان . وقصارى القول إنما نشأ الإنسان الأول يعبد الشمس والقمر والنجوم والمطر والنور وغيرها من آلهة الخير ، والرعد والبرق والنار والظلام وغيرها من آلهة الشر ، وقدم القرابين والذبايح استدرارا لخير الأولى واتقاء لغضب الثانية ، فكان الدين على هذا الرأي وليد اللذة كما كان وليد الألم والخوف (child of fear) ، لذلك كان ينبغي للعربي الذي يراقب الطبيعة ويرحل في انتجاع أودية خصبة أن يكرم الآبار ، ويجل الرطب واللبن والعسل ، ويعبد الأشياء التي كانت مصدر هذه النعم كلها ؛ لكن المؤرخين لم يذكروا شيئاً من هذا القبيل في كلامهم عن المذاهب الجاهلية ، بل اختلف الرواة في بدء الوثنية عند العرب ، ولم يبق قول يتفق عليه حتى تثق به ، فقد قال البعض إنها بدأت بعد وفاة آدم عليه السلام كما ذكرنا سابقاً ، وذهب البعض إلى أن أباكشة نشر عبادة النجوم عند العرب ، وأجمع كثير من الرواة على أن عمرو بن لحي نصب الأصنام حول الكعبة ؛ وإذا رجعنا إلى ما ورد في التنزيل نرى أن الأصنام قد عمدت في عصر نوح أيضاً ، وهذا العصر أقدم من عصر عمرو بن لحي ، فهذه الروايات العربية يبدو أنها تناقض بعضها بعضاً ، ولكنه يتجلى لنا أن الاختلاف في بدء الوثنية ليس تناقضاً ، وإنما هو إلى النوعية التي استمرت فيها الوثنية في عصور شتى . وهذه العصور تبدأ وفق روايات العرب من وفاة آدم ، حينما أخذ بنو شيث يعبدون أباهم آدم ؛ واستمرت هذه العبادة إلى عصر يزد بن مهدي ، كما قيل إنه في عصره عملت الأصنام : ود ، وسواع ، ويعوق ، ويعوق ، ونسر ؛ وبعث إدريس إليهم للهداية فدعاهم إلى التوحيد ، لكنهم لم يستجيبوا له ، فرفعه الله إليه ، واستمر القوم في عبادة الأصنام إلى عصر نوح ، فتلاشت الأمة في الطوفان ، ثم انتشر النسل من أولاد سام في بلاد

العرب ، ومنهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعمالق ، ويقال لهذه القبائل « القبائل البائدة » لما أصابها من العذاب السماوي الذي أهلكهم ، إلا من آمن منهم ، وما آمن إلا قليل ، وقد كانوا أصحاب أوثان ، وكان من أصنامهم صمود وصداء والحصباء^(١) ، على رواية المسعودي ، فعبدوها من دون الله ، ونسوا ما أنعم الله به عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وبوأهم أرضاً تدر عليهم الخير ، فبعث الله إليهم هوداً ، فدعاهم إلى عبادة الله ، فأبوا وكذبوا و « قالوا يا هود^(٢) ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » ، فأمسك الله عنهم المطر حتى جهدوا ثم أرسل عليهم الريح العقيم واستمرت متواصلة سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فهلكت عاد بكفرهم وطغيانهم ؛ ثم خلف من بعدهم ثمود وكانوا خاضعين لعاد وهي في أوج عظمتها ، فلما أيدت عاد ظهرت ثمود وكانت مثل عاد تدين بالوثنية ، فأرسل الله إليهم صالحاً واعظاً مذكراً ، ودعاهم إلى عبادة الله ، فأمن له المستضعفون من قومه ، وكفر الملا منهم ولم يؤمنوا له ، وطلبوا آية على صدقه ، فأتاهم بالناقة ، وقال لهم لا تمسوها بسوء ، فتركوها مدة قليلة ثم عقروها ، فأنذرهم صالح بالعذاب بعد ثلاثة أيام ، فتآمروا على قتله ، فأهلكهم الله بالصيحة والرجفة ، أما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب ؛ هذا ما نستطيع أن نفهم من الروايات العربية ، فلنرجع إلى ما ورد في التنزيل : « كان الناس^(٣) أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم » ، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كانت عليه عقيدة الشعب في وجود الله ، فقال :

(٢) سورة « هود » الآية ٥٣ .

(١) المسعودي ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

« ألم يأتكم نبيّ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كافرينا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين »^(١) . فظاهر من هذه الآية أنهم كانوا يشكون في وجود الله في أول نشأتهم ، وكذلك في عصر نوح قال الله تعالى : « قال نوح ربّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبيرا ، وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا »^(٢) ؛ وقد حكى الله عقيدة الشعب أيضاً على لسان نبيه هود عليه السلام ، فقال : « و إلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون »^(٣) . « قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا »^(٤) ؛ فاثابت من هذه الآية أن قوم هود لم يكونوا يعرفون التوحيد ، فلما دعوا إليه لم يقبلوه ، وكذلك كان شأن قوم صالح ، كما قال سبحانه وتعالى : « و إلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا أتهيننا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب »^(٥) .

ثم أتى إبراهيم عليه السلام فجادل أباه « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ

(١) سورة إبراهيم الآية ٩ .

(٢) « نوح الآية ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ وانظر التوراة والتلمود في قصة الطوفان .

(٣) « الأعراف الآية ٦٥ . (٤) سورة الأعراف الآية ٧٠ .

(٥) « هود الآية ٦١ ، ٦٢ .

أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين^(١) » وكذلك « إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً^(٢) » . فقال له أبوه : « أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً^(٣) » قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله^(٤) » وأتى بإسماعيل فى واد غير ذى زرع .

تدل الآيات السالفة على أن الوثنية استمرت من عصر إلى عصر ، وتطورت من نوع إلى نوع ، فكان كل نوع من الوثنية فى كل فترة يختلف عن سواه ، وكما بعد الشعب عن عصر النبى زادوا فى الكفر والطغيان والمعصية كما قال الله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبینا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا ، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا »^(٥) .

تهدينا الآيات السالفة إلى أن الناس كانوا أمة واحدة سواء كانت الأمة واحدة على الحق أو على الباطل^(٦) ، وسواء أبدأت تلك الأمة حياتها من الحضارة أو من البداوة ، وذلك كما قال « سبنسر » ، وأغاب الظن كما أعتقد أن تقهقر المدنية لم يكن أقل من تطورها^(٧) ، فبناء على ذلك تكون البداوة درجة الصعود فى تطور الحياة كما تكون درجة النزول فى تقهقر الحضارة . فالبداوة سواء أكانت درجة التطور أو التقهقر هى نقطة مبدأ حياة الإنسان ؛ فاختلاف الناس فى هذا

(١) سورة الأنعام الآية ٧٤ ، وانظر Talmud Chap 11, 111 by. Polauo

(٢) » مريم » ٤٢ . (٣) سورة مريم الآية ٤٦ .

(٤) » » » ٤٧ ، ٤٨ . (٥) سورة مريم الآية ٥٨ ، ٥٩ .

(٦) تفسير نجر الدين الرازى .

(٧) Prinsiples of sociology by Prencer P 93

الموقف ، وبدأوا يشكون في فاطر السموات والأرض ، وأتى عصر نوح فاستكبروا وعبدوا أصنامهم من دون الله ولم يكن الله عندهم فيما فهموا إلا إلهاً من الآلهة كما يؤخذ من قوله تعالى : « أجبثنا لنعبد الله وحده » وهكذا كانت عقيدة قوم صالح وهود . وكذلك كانت أمة إبراهيم تشرك بالله كما قال إبراهيم : « يا قوم إني بريء مما تشركون »^(١) ؛ فهذا يهدينا إلى أن الوثنية العربية في عصر الأنبياء بدأت بالشك في فاطر السموات والأرض ، وأصبح الله صنماً كالأصنام الأخرى عند عاد وثمود ، ثم استقرت الأمة على الشرك في عصر إبراهيم ، ودعاهم هذا الشرك إلى إنكار الخالق ، ثم إلى عبادة الأصنام تقرباً إلى الله زلفى ، كما حكى عنهم سبحانه وتعالى : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . وخلاصة القول أن الوثنية مرت من التعظيم إلى الشك ، ومن الشك إلى الشرك بالله ، ولم تنقطع الوثنية في الفترات المتقطعة عند العرب ، بل كلما تركهم الله على الأرض أضلوا عباده ولم يلدوا إلا فاجراً كفاراً ؛ وهكذا كان شأن الإنسان دائماً كما قال الله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوساً »^(٢) ، وكذلك قال سبحانه وتعالى : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً »^(٣) .

وقصارى القول أنه قدس بنو إسماعيل بناء الكعبة لاعتقادهم ما قال الله : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً »^(٤) . ثم أتى بعدهم جيل آخر فسوا غرض الأسلاف في الطواف حول الكعبة ، واحترموا الكعبة لأغراض اقتصادية واجتماعية غير

(١) سورة الأنعام الآية ٧٨ . (٢) سورة الإسراء الآية ٨٣ .

(٣) « الإسراء الآية ٦٧ » (٤) « آل عمران الآية ٩٦ » .

دينية ، ودعتهم هذه الأغراض لاتخاذ المروءة سبيلا لتنظيم حياتهم الاجتماعية ، ولم تبلغ المروءة هذه الدرجة العالية كما نراها في الأمة العربية إلا بعد تطور تدريجي ولكن معالم هذا العصر مجهولة . ولا يذكر القرآن ولا التاريخ المدون الحالة الدينية في ذلك العصر ، لأن أقدم حادثة تاريخية لها أثرها ويمكن الرجوع إليها هي حادثة انهيار سد مأرب منذ القرن الثاني المسيحي^(١) تقريبا ؛ أما ما يتعلق بالقرون السابقة لتلك الحادثة فلا نعرف عنها إلا نورا يسيرا من روايات غير محققة عند المؤرخين ، ومن أمثالها ما يذكرون أنه حينما كانت ساطة اليمنيين تنتشر في أنحاء جنوب شبه الجزيرة كان العدنانيون في ذلك الوقت يحتشدون في بادية الحجاز ونجد ، ولكن هجرتهم كانت من ناحية الشمال^(٢) بخلاف القحطانيين الذين دخلوا شبه الجزيرة من الجنوب^(٣) . ومهما كان قرب هذه الرواية من الصحة فإن التاريخ لم يحدد العصر الذي دخلت فيه تلك القبائل شبه الجزيرة . ومما لا نشك فيه أنهم ظهروا في هذه البقعة منذ عهد قديم . وكثير من المستشرقين يعترف أن منشأ الساميين المتحضرين هو بادية العرب لا غير^(٤) . ولكن لا نستطيع أن نذكر شيئا تاريخيا عن هذه القبائل التي أصبحت أسطورة من الأساطير عند العلماء ، وكل ما نعرفه عن طريق رواة العرب وعن المؤرخين المعاصرين^(٥) غير العرب ، أنهم كانوا أمة همجية ، وكانوا أهل خيام لا يستقرون في مكان ، معاشهم من كسب إبل يرتادون بها المراعى والمياه ، ولم يبنوا بيوتا ؛ ولم ينشئوا مدنا بخلاف أهل اليمن ، الذين كانوا هم تابعين لهم ، وفي القرن الخامس

(١) Historian history of the World

(٢) P. 106 Vol VIII

(٣) Liter. History P. 106 Vol. VIII

(٤) Historian's History P. 3 مقالة نولدك .

(٥) تاريخ هيرودوت .

المسيحي ظهر فيهم كليب وهو رجل من قبيلة ربيعة — وهي قبيلة تنسب إلى نزار بن عدنان — فخلص قومه من نير ساطة القحطانيين ، وأراد إقامة دولة عربية ، لكنه مات قبل تنفيذ رغبته ، وبقيت العرب على بداوتها حتى ظهر فهر بن قريش في القرن السادس . فلا يبعد إذاً أن يكون هذا العصر الذي يمتد من القرن الثاني المسيحي صاعداً إلى القرون الماضية قبل المسيح هو عصر بدء الحياة العربية الطبيعية ، وهو العصر الذي نشأت الوثنية فيه من عبادة الطبيعة ، وعبادة السلف .

الفصل الثاني

الوثنية المحلية في البلاد العربية

ظهرت العرب في البادية تحيط بها الطبيعة من كل جانب وقد تعرضت حياتهم لتجارب شديدة كانت سببها الصعوبة في تحصيل مرافق المعيشة . فكان العربي يبحث عن قضاء الضروريات التي لا مناص منها ، فكان يجرب الأشياء ، ويميز اللذة من الألم ، والخير من الشر ، وكان تفكيره يتطور مع تطور تجاربه في الحياة . وفي هذا الطور يتصل تاريخ الوثنية العربية بالنظريات العقلية العامة ، كما يجوز أن تكون هذه الفترة أيضاً هي نقطة اتصال التاريخ بالنظريات العقلية التي بينها في الفصول السابقة وسميناها بالمشهد الحيوي والمذهب الطوتمي . والواقع أن العدنانيين قد أخذوا يستكثرون التسمية بأسماء الحيوان كما يقال : « ومن ^(١) ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة ومكالب بن ربيعة ومكلبة بنور ربيعة وفيهم من السباع أسد وضبعة وذئب وذؤيب » وقد بينا أسباب التسمية بأسماء الحيوان عند العرب .

وأهم رواية عربية تدل على وثنتهم ما قاله الأزرقى ^(٢) : « أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا احتمل معه من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم ، وصباية بمكة والكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا

(١) الحيوان للجاحظ ص ١٥١ . (٢) أخبار مكة ص ٦٦ .

(الوثنية) بدين إبراهيم وإسماعيل ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبائهم من الضلالات ، وهكذا روى الكلبي . وروى الألويسي^(١) : وكنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجراً أحسن منه تلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به ، وقال أيضاً : « كنا نعد إلى الرمل فنجمعه ونحلب عليه فنعبده وكنا نعد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه » . وروى عن أبي عثمان الهندي^(٢) : « كنا في الجاهلية نعبد حجراً فسمعنا منادياً ينادى : يا أهل الرجال ! إن ربكم قد هلك فالتمسوا رباً ، قال : فخرجنا على كل صعب وذلول ، فبينما نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادى : « إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه » وإذا حجر ، فنحرقنا عليه الجزور » . فظهرت من هذه الروايات أن العرب لم يعبدوا كل صنف من الحجر ، بل ما استحسنا من الحجارة وما أعجبهم منها ، ومعظم تلك الحجارة المختارة كانت بيضاء اللون وكانت لها علاقة بالغنم والجل ولبنهما . وقد بينا من قبل أن العقالية العربية لم تتطور من خيال تصويري إلى خيال اختراعي في العصر الجاهلي ، فمن المحتمل أنه رأى في بادئ بدء شيئاً يشبه الكلب والضأن والإنسان فسمها رأس الكلب ورأس الضأن^(٣) ورأس الإنسان . وكذلك رأى في « ذى الكفين » و « ذى الرجل » حيث قال : « لعل هذه الأسماء قد أطلقت على الأحجار المقدسة التي كانت تشبه هيئة الإنسان في نحتها الردي^(٤) » ويؤيده ماورد في الجاسد (اسم صنم كان بحضرموت) قليل إنه كان « كجثة الرجل العظيم وهو من صخرة بيضاء لها رأس أسود وإذا تأمله الناظر رأى فيه صورة وجه الإنسان^(٥) » . وقيل أيضاً : « كان لطيء

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢١١ . (٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) معجم البلدان (أسماء الجبال) .

(٤) "Arabs" in Encyclopedia of Ethic & Religion by Hasting

(٥) معجم البلدان ص ١٢٢ تحت ج .

صنم يقال له « الفلس » وكان أُنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ ، أسود كأنه تمثال إنسان ، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعقرون عنده ^(١) .

هذا ما يتعلق بمنهج خيال العرب ، أما ما يتعلق بكيفية نسج الأسطورة ، فالعربي يسمى الجبال التسمية التي تكون وفق تصوره لها ، وإذا أراد نسج الأسطورة لعب بالألفاظ وتمييق العبارة ، كما أنه يفرم بتسمية الأشياء حسب المزايا التي يوصف بها ذلك الشيء في تصوره ؛ فإذا أردنا أن نبحث أسطورة عربية خالصة ، فيجب أن نبحثها من وجهة صناعة العرب اللفظية والمنطقية ، ذلك لأن العربي يسمى المواطن والأشخاص حسب الحوادث التي حدثت فيها ، أو تعلقت بها ، كما ورد في أخبار مكة ^(٢) : نخرج مضاض بن عمرو بن قعيقعان في كتيبة ، سائراً إلى السميدع ومع الكتيبة عدتها من الرماح والدرق والسيوف والجباب تققع بذلك — ويقال ما سميت قعيقعان إلا بذلك — وخرج السميدع بقطور من أجياد معه الخيل والرجال — ويقال ما سمى أجياد أجيادا إلا لخروج الخيل الجياد منه مع السميدع — حتى التقوا بفاضح فاقتلوا قتلاً شديداً ، فقتل السميدع وفضحت قطور — ويقال ما سمى فاضح فاضحاً إلا بذلك ؛ وسمى مطابخ مطابخاً لأنه أطبخ للناس هنالك ؛ وكذلك قيل إنما سمى « ثبير ثبيراً » برجل من هذيل مات في ذلك الجبل فعرف الجبل به ، وكان اسم الرجل ثبيراً ؛ ويقال ^(٣) إن الصفا والمروة كانا اسمي رجل وامرأة أثما في الكعبة فسخهما الله تعالى حجرين فوضعا كل واحد منهما على الحجر المسمى باسمه لاعتبار الناس ، ثم أتى عمرو ابن لحي ونصب على الصفا صنماً يقال له نهيك مجاور الريح ، ونصب على المروة صنماً يقال له مطعم الطير ^(٤) ؛ ويقال إن أسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة من

(١) كتاب الأصنام ص ٥٩ . (٢) أخبار مكة ص ٤٠ .

(٣) عجائب المخلوقات ص ١٥٤ « تحت الجبال » .

(٤) أخبار مكة ص ٧٣ .

جرهم يقال للرجل أساف بن يعلى وللرأة نائلة بنت زيد ، وكان الرجل يتعشقها في أرض اليمن فأقبلا حجاجا فدخلوا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ففجر الرجل بها في البيت فمسخا ، فأصبحوا فوجدوها مسخين^(١) .

ومن أمثال ذلك ما قيل في جبل أبي قبيس في كنيته بأبي قبيس وهو : « أن آدم كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس^(٢) » ، وقيل : إنه أضيف إلى رجل من مذحج كان يتعبد فيه اسمه أبو قبيس ؛ ومعنى « أبي قبيس » « شيخ الجبال »^(٣) وكان من قبل يسمى بالأمين ، ولم يقف تصور العرب حول جبل أبي قبيس عند تلاعب الألفاظ والأوهام ، بل نسجوا حوله أسطورة قصصية ؛ فقد روى عن محمد أنه قال على لسان إياد بن نزار القصة التي يذكر فيها أن إياداً حمل الحارث بن مضاض بن عبد المسيح على إبله إلى مكة ، فقال الحارث هذه الأسطورة في أثناء سفره ، وخلاصتها أن هذا الجبل سمي باسم أبي قبيس بن سامخ ، وهو رجل من جرهم كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه « مية » فنذرت أن لا تكلمه ، وكان شديد الكلف بها ، فحلف لأقتلن أبا قبيس فهرب أبو قبيس منه في الجبل المعروف به ، واتقطع خبره^(٤) .

هالك أسطورة أخرى نسجت حول جبلى طيئ ، قيل سار « طيئ » بإبله وولده حتى نزل الجبلين فرآهما أرضاً لها شأن ، ورأى فيها شيخاً عظيماً جسيماً مديد القامة على خلق العاديين ، ومعه امرأة على خلقه يقال لها سلمى ، وقد اقتسما الجبلين بينهما . فأجا رجل من العاليق يقال له أجا بن عبد الحى عشق امرأة من قومه يقال لها سلمى ، فسألها طيئ عن أمرهما ، فقال الشيخ نحن من بقايا صحار ، غنينا بهذين الجبلين عصرًا بعد عصر ، أفنانا كر الليل والنهار ، فقال له طيئ : هل لك في

(١) كتاب الأصنام ص ٩ .

(٢) معجم البلدان ص ٩٤ .

(٣) نهاية الأرب للعقري .

(٤) كتاب التيجان ص ١٨٠ — ١٩٧ .

مشاركتي إياك في هذا المكان فأكون لك مؤانسا وخلا ، فقال الشيخ : (الجبل)
 إن لي في هذا رأيا فاقم ، فإن المكان واسع ويقال إن لغة طي هي لغة
 الشيخ (الجبل) الصحارى والعجوز امرأته^(١) وقد يكون من أجل هذا
 تشخص الجبال في صورة شيخ أسطوري على خلق العاديين . فالشاعر الجاهلي
 يشبه الجبل بكبير أناس :

كأن ثيرا في أفانين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل
 ثم أتى اللغويون ورأوا أن « أجا الرجل يعنى فر »^(٢) ، فكونوا أسطورة
 جديدة من أجزاء قديمة حول ثلاثة أجبل وهي أجا وسلمى والعوجاء ، فقالوا إن أجا
 اسم رجل تعشق سلمى ، وجمعتهما العوجاء وكانت لها حاضنة وكانا يجتمعان
 في منزلها حتى نزر بهما إخوة سلمى وهم الغميم والمصل وفدك وفائد والحدثان^(٣) ،
 فهرب أجا بسلمى وذهبت معهما العوجاء ، فتبعهم زوج سلمى ، فأدركهم وقتلهم ،
 وصلب أجا على أحد الأجبل فسمى أجا ، وصاب سلمى على الجبل الآخر
 فسمى بها ، وصاب العوجاء على الثالث فسمى باسمها قال الشاعر :

إذا أجا تلفعت بشعافها على وأمست بالعماء مكلله
 وأصبحت العوجاء يهتز جيدها كجيد عروس أصبحت متبذله

وقصارى القول أن العربي الحجازي كان في هذه الفترة يبحث عن ربه
 في الأودية الخصبية ، وكان ينسج الأساطير حول الجبال والآبار والأشجار ، وكان
 يرى صورة ربه في الأحجار التي تسترعى نظره ، ويرسم صوراً خيالية في الأحجار
 التي كان يبحث عنها في كل واد ؛ وهكذا كان شأن البابليين وجميع الأمم السامية
 في أول نشأتهم ، فلا غرو أن كانت آلهة العرب من الآبار والأشجار والحيوان ونحو

(١) معجم البلدان ص ١٢٧ ط ليزج . (٢) لسان العرب « أجا » .

(٣) معجم البلدان ص ١٢٣ ط ليزج .

ذلك ، لأن هذه هي المظاهر الوحيدة التي كانت العرب تشاهدها ، وهي الملجأ الوحيد الذي كانت العرب تفرع إليه في حاجات ماسة ، وتلعب بها حولها أوهاماً وخرافاتهما في أوقات فراغها ، ويؤيده ما ورد في حقوق حفر البئر وواجباته ، فقد قيل : « والقلب^(١) البئر العادية القديمة التي لا يعلم لها رب ولا حافر ، فليس لأحد أن ينزل منها على خمسين ذراعاً ، وذلك لأنها لعامة الناس » ، فظهر أنه كان لكل بئر أرض وكلأ مخصوص محصور ، كما كانت ذو العرجاء عيناً يأضم من ناحية المدينة ، والعرجاء قطعة من الأرض حولها ، فكان بعضها له رب يحميه ، وبعضها لا يعلم له رب ، والبئر الذي لم يكن له رب يكون الإله هو ربه وحاميه ، وهذا ما يسمونه بأرض بعل ؛ فهذا الحمى المعين لحدود خمسين ذراعاً حول البئر كان هيكل الصنم ، وحرَم الإله العربي القديم ؛ وقد قال النبي (صلم) : « لا حمى إلا لله ولرسوله » ؛ وكان من حقوق هذا الحمى أن لا يظلم الناس في هذه الحدود ، وأن لا يقنص الصياد الحيوان ولا الطير في هذه الأرض المقدسة ، فلا يبعد أن يكون هذا هو غرض عمرو بن لحي في تنصيب الأصنام على مواطن المياه والآبار وسواحل البحر ، كما قيل إنه نصب هبل على البئر التي كانت في جوف الكعبة ، وسميت بالأخسف ، وكذلك أقام أسافاً ونائلة على حفافى « زمزم »^(٢) ، ويؤيده ما قيل في الأسطورة التي تبين أثر حرمة البئر في حياة العرب الاجتماعية وهي : « كان^(٣) في الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حفره إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل عليهما السلام حين رفع القواعد ، وكان يكون فيه ما يهدى للكعبة من حلى أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك ،

(١) لسان العرب ص ٢٠ « بير » .

(٢) وكذلك كان للجلسد حمى مرعاة لأمه وغنمه (معجم البلدان) . وكان وادى سقام للزرى (كتاب الأصنام) .

(٣) أخبار مكة ص ١٦١ .

وكانت الكعبة ليس لها سقف ، فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة ، وكانت جرهم ترتضى لذلك رجلاً تكون عليه حراسته ، فبينما رجل ممن ارتضوه عندها ، إذ سولت له نفسه ، فانتظر حتى إذا انتصف النهار ، وقلصت الظلال ، وقامت المجالس ، وانقطعت الطريق ، ومكة إذ ذاك شديدة الحر ، بسط رداءه ثم نزل في البئر فأخرج ما فيها فجعله في ثوبه ، فأرسل الله عز وجل حجرا من البئر فخبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر ، فسميت تلك البئر الأخسف ، لأنه خسف بالجرهمي وخبسه » ؛ وكذلك روى عن مجاهد قال : « دخل ^(١) مكة قوم تجار من الشام في الجاهلية بعد قصي بن كلاب فنزلوا بوادي طوى تحت سمرة يستظلون بها فاخترزوا على ملة لهم ، ولم يكن معهم آدم ، فقام رجل منهم إلى قوسه فوضع عليها سهماً ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى ، فقاموا إليها فسلخواها وطبخوها ليأتمدوا بها ، فبينما هم كذلك وقدرهم على النار تغلي بها ، وبعضهم يشوى ، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة ، فأحرقت القوم جميعاً ، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرة التي كانت تحتها .

هذا من بقايا الأساطير التي تدل على احتفاظ العربي بتقاليده في الحمى والبئر والجبال ، فهو صورة من صور التعليل العربي في حالة تدوين الأساطير ، فلا يبعد أن يكون النصب التي وجدت في بادية العرب مثل ذي الخليفة ^(٢) (وكان مروة بيضاء منقوشة) ، وسعد ^(٣) (وكان صخرة طويلة) ، ورضاء ^(٤) (وكان بيتاً لبنى ربيعة) بقايا من هذا العصر ، لأن لهذه الأسماء علاقة بالتفاؤل الذي كانت العرب تهتم به اهتماماً عظيماً ، وقد رأينا ما كانت عليه أوهام العرب في شجرة

(١) حياة الحيوان ص ٨٦ . (٢) كتاب الأصنام ص ٣٤ .

(٣) كتاب الأصنام ص ٣٧ . (٤) » » » » ٣٠ .

العشر والسمرات وفي بعض الأحجار في المذهب الحيوى ، وسنرى كيف تطورت هذه الأوهام في عبادة الشجر والحجر حتى صارت الأشجار والأحجار من آلهة العرب — من ذلك :

ذات أنواط :

كانت لكفار قریش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها : « ذات أنواط »^(١) ، وكانت ذات أنواط قريبة من مكة كما ذكره ياقوت ، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعتكفون عندها يوماً .

ذو الخلصة :

كانت تسمى الولية والعملات ، وكانت يبتا في قرية ثروق وهي من البيوت التي تعظمها العرب تعظيم مكة ، لها سدة وحجاب ، وكانت تهدي لها كما تهدي للكعبة وتطوف بها كما تطوف بالكعبة وتنحر عندها كما تنحر عند الكعبة . ويت ذى الخلصة يشتمل على نصبين أحدهما مروة بيضاء (وزاد الكلبي بأنه منقوش عليها كهيئة التاج) ، وثانيهما شجرة الخلصة ؛ ومعنى الخلصة في اللغة نبت طيب الريح يتعلق بالشجر ، وله أوراق غير رفاق مدورة واسعة ، وله ورد كورد المروؤان ، وهذا النوع من الشجر يسمى العباء ، كما أن المروة البيضاء من الحجر الأبيض تسمى كذلك « العباء » فليست ذو الخلصة إذاً إلا نوعاً من تطور عبادة الشجر أو الحجر ، وانتشرت عبادتهما^(٢) بتبالة بين مكة واليمن ، وكانت تعظمها وتهدي لها خشم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن^(٣) . وكانوا يستقسمون عند ذى الخلصة ، كما قيل إن امرأ القيس لما خرج يطلب

(١) أخبار مكة ص ٧٧ .

(٢) أخبار مكة — تعليقات رشدي صالح أفندي .

(٣) كتاب الأصنام ص ٣٥ .

بثأر أبيه استقسم عنده نخرج له ما يكره ، فسب الصنم ورماه بالحجارة وانشد :
لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة^(١) زورا

وهكذا كانت العرب تتفاءل بالحيوان ، وتقديس الشجر وتستقسم عند كل
نصب كعادة الرعاة جميعا .

سعد :

قيل إن سعداً كان لملك ولملك ابن كنانة بساحل جدة ، وكان صخرة
طويلة فأقبل رجل منهم يابل له ايقفها إليه يتبرك بذلك ، فلما أدناها منه تقرت ،
فذهبت في كل وجه ، وتقرت عليه ، وأسف فتناول حجراً فرماه به ، وقال :
لا بارك الله فيك إلهما ، أنقرت على إيلي ، ثم خرج يطلبها حتى جمعها وانصرف
عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد^(٢)
ومن هذا السبيل^(٣) « الحتمة » واحد حتم وهو القضاء ، وهي صخرات
مشرفات في ربع عمر بن الخطاب بمكة أو « الحطيم »^(٤) كان بمكة ، وقيل إن
الجاهلية كانت تتحالف هناك ، وكان العرب يتحطمون بالإيمان ، فكل من دعا
على ظالم وحلف إنما عجلت عقوبته ، وكذلك إلال اسم جبل بعرفات ، وقيل إن
إلال جبل عرفة نفسه . وروى عن الزبير بن بكار إلال هو البيت الحرام ، وهذا
يهدينا إلى أن إلالا كان له علاقة بالبيت الحرام ، فاشتبه الأمر عند المفسرين ،
فقال البعض إنه جبل عرفة كما قال الشاعر :

(١) كتاب الأصنام ص ٣٥ . (٢) كتاب الأصنام ص ٣٧ .
(٣) معجم البلدان ص ٢١٦ . (٤) معجم البلدان ص ٢٦٨ .

فأقسم بالوقوف على إلال ومن شهد الجمار ومن رماها^(١)
 وذهب البعض أنه بيت الله وسمى « إلالا » لأن الحجاج إذا رأوه ألّوا أى
 اهتدوا إليه ، وقد يكون له علاقة بأوال^(٢) الذى كان صنما لبكر وتغلب ابني وائل .
 هذا ما كان يتصوره العربى فيما حوله ، وأما ما يتعلق بمشاهداته فى السماء ،
 فكان يرسم بريشة النظر على رقعة الفلك كل ما كان يرى فى البادية ، ويظهر
 هذا جليا فى الأساطير التى نسجت حول أشكال النجوم والأنواء ؛ وقد بينا أهم
 تلك الأساطير فى مدخل البحث .

أما تطور هذا الصنف فى عبادة النجوم ، فقد سبقنى الباحثون فى بحث
 ذلك الموضوع وكتبوا تحت مذاهب الصابئة كتباً متعددة ، لكنى أرى أن
 منشأ الصابئة ليس ببادية العرب ، بل لم ينتشر مذهب الصابئة انتشار الوثنية
 المادية فى بادية العرب ، وذلك لأن العقلية العربية لم تكن مستعدة لإدراك
 تصورات مجردة ، مثل تجريد النوم وتشخيصها فى أشكال روحانية ، وهذا
 ما رأى نولدكه إذ يقول : « يظن أن مذهب العرب أوقل مذهب الساميين جميعاً
 مبنى على عبادة النجوم ، لكن هذا الظن لا يتفق مع الحقائق التاريخية ،
 ومما لا نزاع فيه أن العرب عبدوا الشمس والنجوم الأخرى فى عصر متأخر جداً ،
 أما الأوثان المتعددة غير النجوم فلا يمكن تفسيرها بأنها شكل من أشكال
 الكواكب^(٣) . وقصارى القول أن الأساطير التى نسجت حول الجبال والآبار
 والأشجار تدل على أن الوثنية المحلية تنحصر فى تقديس الأشياء التى استفاد بها
 العربى البدوى ، لكنها لم تقف إلى هذا الحد ، بل استمرت وتطورت تحت
 تأثير الحضارة المجاورة .

(١) معجم البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) تعليقات زكى باشا فى « تكملته » على كتاب الأصنام .

(٣) Encyclopedia of Ethic & Religion " Arabs " .

الفصل الثالث

الوثنية الخارجية في البلاد العربية

بينت في الفصول السابقة أن العربي الجاهلي قدس الآبار والأشجار والجبال ، ولكن لم أرد بتقديسها أنه شخص الماء والخصب في شخصيات تمثل ربا من أرباب الطبيعة ، بل أردت أنه دهش منها وقدسها إجلالا لندرته في بادية العرب ، وذلك لأن عقليته لم تكن مستعدة لإدراك تصورات مجردة ، كما أن الأساطير التي نسجها حول النصب تدل صراحة على أنه لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالقه أو خالق الكائنات ، لأنه تارة يستقسم عند الوثن ، وتارة أخرى يسبه ويشتمه ، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة ، ذلك إلى أنه لم يرد في الأخبار الجاهلية أن أمثال حاتم الطائي والسموئل ، أو سدنة البيت مثل عمرو بن لحي وقصى بن كلاب ونحوهم ارتقوا إلى درجة الآلهة عند العرب كما أصبحت السدنة والملوك فيما بعد عند الأمم القدماء ، وقد يكون ذلك من أجل أن العرب لم تسجد أمام النصب مثل الوثنيين الآخرين ، بل اقتصرت على الطواف حوله .

لم يكن الوثن في تصور العرب ربا إلى القرن السادس ق . م ، لأن عرب الحجاز ونجد لم يكونوا متصلين بالوثنية المجاورة ولم يتأثروا بالوثنية البابلية أو الرومانية أو اليمنية قبل ذلك القرن ، نعم لقد غزا بمختصر تهامة فيجوز أنه نشر الوثنية الأشورية في تلك البقعة ، أما الوثنية اليمنية فإن كانت قد دخلت في الحجاز ونجد فيكون ذلك بعد انهيار سد مأرب^(١) منذ القرن الثاني المسيحي ،

فهي متأخرة ، لأن حادثة عمرو بن لحي حدثت بعد هجرة أزد اليمن إلى الشمال . ولكن إذا رجعنا إلى تنقيب الباحثين عن آثار الساميين^(١) القدماء رأينا أنهم اتفقوا على أن الآشوريين واليمنيين كانوا يحتفظون في وثيقتهم بمكان واسع لأصنام الكلدان والآشوريين من زمن بعيد ، فقد ورد في تاريخ العالم للمؤرخين أن نظرة سريعة في الأخبار التي وصلت إلينا تبين أن أساس التصورات الدينية عند القبائل السامية في بلاد العرب يكاد يكون مطابقاً لما يوجد عند الساميين في سوريا أو في وادي الفرات ، ولا يبعد هذا عن الصواب لأن مدينة بابل وآشور كانتا أقدم مصدر للحضارة في شبه الجزيرة ، ولو أنها لم تكن منبع الحضارة العالمية . فيجدر بنا أن نغير الوثنية البابلية اهتمامنا لكي نعرف كيف تأثرت العرب بالعقائد المجاورة ولماذا تأثرت ، ولأي سلطة دينية خضعت ، ولأي ملة مالت .

قيل كان البابليون يعتقدون في ثلاثة آلهة عظيمة أنو (Anu)^(٢) أي رب السماء ، وبعل (Baal) أو مردوخ (Merduke)^(٣) خالق الأرض والإنسان ، وهيا^(٤) (Ea) رب الماء تحت الأرض ، وهذه الآلهة الثلاثة تكون الثلاث الأول ، بينا الثلاث الثاني كان مركبا من الإله سين (Sin) والإله الشمس (Shamsh) والإله (Rimman) إله الرعد والبرق . وكانوا أيضاً يعتقدون في الإله نرجال (Nergal) إله الحرب ونيبو (Nebu) إله النباهة . وكان لكل واحد من الآلهة أنو وبعل وهيا إلهة تزوج بها لتعاونه في إيجاد الخلق وهي أنت (Anatu) بعليت (Belit)

(١) Historian's History of the World "Aarbs"

(٢) Babylonians and Assyrian Literature

(٣) Kings Babylonians Religion

(٤) Enyclopedia Britanica

ملاحظة : هذه الآلهة مأخوذة من تاريخ المشرق للمسيو ماسبيرو تعريب أحمد زكي باشا ، وتاريخ كلد وآشور لأزدي شير .

ودومكينا (Domkina) . وكانت من أعظم آلهتهم العشتار التي أرادوا بها فصل الربيع أو الطبيعة الهولية ، واللاتو (Allatu) ملكة الهاوية أو الموت (Hades) ومامناتو (وهي إلهة القضاء والقدر) . لم تكن وظائف الآلهة محدودة تحديداً معيناً لأنها تغيرت في كل عصر وفق دواعي البيئة ، حتى ارتقت من الصفات الأرضية إلى الصفات السماوية ، فأصبح مقر مردوخ في المشتري ، ونرجال في المريخ ، وعشتار في الزهرة ، ونيبو في عطارد . وكانت هذه الأصنام ترتفع في المراتب وتنزل وفق دواعي العصر ، كما أن مردوخ ورث سلطان آشور وتقوده بعد ما أصبحت بابل عاصمة البلاد . وكان يعرف باسم بعلو كما كان يعرف باسمه الحقيقي الذي هو مردوخ على السواء . وقد صار نابوبولاصر ونابوناheid في عصر حمورابي أعظم آلهة الكلدانيين شوكة ، وبعده نقلت آلهة الكلدانيين من مدائنهم ووضعت حول مردوخ كالأتباع ، ودارت الأيام دورتها واقتضى العمران تسير الأمور القديمة وفق الدواعي الحديثة ، فاقتضت عملية التوفيق والتطبيق أن تجتمع كافة الصفات التي كانت تتمتع بها الآلهة المتعددة في ذات الإله مردوخ ، الذي كان في مبدأ الأمر إله الشمس فقط ، وبذا أصبح حامل صفات بعل وهيا وشمس ونرجال وسين وغيرها .

مرت على مردوخ أو بعل طقوس متعددة فكان في مبدأ الأمر إله الفصل ، ثم صار إله الشمس وإله المطر ، ثم خالق الإنسان في أسطورة الخلق البابلية . وكذلك مر على عشتار التي كانت تمثل فصل الربيع ، فأصبحت ربة الحب والجمال ، ثم إلهة الحب ، ثم إلهة الزهرة . ومردوخ والزهرة من الأصنام البابلية التي انتشرت عبادتها في بلاد العرب جميعاً ، وكذلك إذا رجعنا إلى وثنية آشوريا واليمن رأينا أن أكثر أصنام بابل وآشور التي انتشرت عبادتها في سوريا واليمن هما أيضاً مردوخ وعشتار . وقد اقتفت هذه الأصنام عند السوريين واليمنيين أثر

التغيرات الأرضية والسماوية التي طرأت على الوثنية الكلدية والآشورية ، فكان أعظم آلهة سوريا : ساهور والشمس وحداد إله الرعد والبرق وقرينته أثارجيتس وكان هيكل حداد في هليوبوليس ، وكان الفلاحون يعبدونه كحارس الفصول ، كما كان البابليون يعبدون مردوخ كرب الأرض ، ثم اندمجت عبادة هذا الإله في عبادة الشمس . وفي العصر الروماني أصبح حداد جو بيتر (Jupiter) كما كان مردوخ (Marduke) يمثل الشمس أولاً ثم أصبح جو بيتر .

أما تأثير بابل في عقيدة بني إسرائيل فيظهر من مقارنة الأساطير المأخوذة من ألواح بابل بما ورد في التوراة ، ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن يهوا (Jahweh) هو البعل عند اليهود ، ويكفي ما كتبه كنج (King) في هذا الموضوع في كتاب ألواح الخلق السبعة^(١) . وأما تأثير بابل في ديانة اليمين التي قيل إنها عبادة النجوم من جميع النواحي^(٢) . فذلك أن أهل اليمين كانوا يعتقدون القمر إلهاً ويؤثرون عبادته على إلهة الشمس ، كما كان الكلدان تقدس وتقدم القمر على الشمس — إلا أن عبادة النجوم حتى عند البابليين لم تكن قديمة^(٣) وكما أن معظم أصنام اليمينيين وهي : استار (Sthar) — وود — ونانكروب والشمس ، وآلهة حضرموت وهي : أستار وأنومائي والشمس ، وآلهة سبأ وهي : أستار وهو باس والما كوهو . كل هذه الآلهة ما عدا أستار والشمس أصنام غير بابلية ، وهي أيضاً غير ما عبد العدنانيون . فيظهر من هذا أن العدنانيين ما كانوا يختلفون عن اليمينيين في الحالة والمعيشة والحضارة واللغة فقط ، بل كانوا يختلفون في وثنيتهم أيضاً ؛ ذلك إلى أن معظم اليمينيين كما قيل كانوا يعبدون

Page XXXI. Seven Tablets of Creation. (١)

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (Arabia before Islam) Encyclopedia of Islam

King's Babylonian Religion. (٣)

النجوم ، بخلاف^(١) العدنانيين الذين كانوا لا يعبدون النجم إلا قليلا منهم ، وذلك في عصور متأخرة .

ومن أغرب الأمور ألا تتأثر الوثنية العربية بأهل الجنوب كما تأثرت بالعرب الشماليين ؛ وكان أجدر أن تكون الوثنية في بادية العرب هي الوثنية اليمنية نفسها لهجرة أهل اليمن إلى الشمال بعد حادثة سد مأرب ، ولكن الوثنية الحجازية يظهر أنها صورة تقليدية للوثنية البابلية . فالوثنية العربية في هذا العصر اختارت شكلا تقليديا ، وذلك لأن العربي رأى الأوثان المنحوتة فأحلها محل نصبه القديمة كما هي ، وكذلك وقف على الأسطورة التي نسبت حول تلك الأوثان فلم يزد فيها شيئا من عند نفسه ، بل أخذها كما هي ، فدعت هذه الأساطير إلى تحويل عقليته من فكرة بدوية إلى فكرة زراعية . وقد ورد في أسطورة بابلية^(٢) أن الملك ازدوبار رأى في المنام أن نجوم السماء هوت على الأرض ، وأن واحدا منها كان شعلة من النار خلف وراءه عنقا من النار مثل كرة عظيمة على ظهره فقامت النار هذه أمامه قيام إله عظيم مخوف ، فلما أن زالت الدهشة عنه طلب الملك تعبير رؤياه من المنجمين ، فوقفوا حائرين أمام هذا اللغز ، فبحثوا عن ساحر عظيم ، فذهبوا إلى هياباني (Heabani) النازل بعيدا في الصحراء ، فجاء هياباني وفسر حلم الملك ، وقال سيظهر إله من الآلهة ، تؤدي أعماله السيئة إلى البغض والعداء ، فنجد فكرة مماثلة لهذه الأسطورة في الخرافة العربية التي تقول إن ربيعة^(٣) بن نصر بن مالك التبع ، رأى رؤيا هالته فبعث إلى جميع الكهان والسحرة والمنجمين من رعيته فاجتمعوا إليه ، فقال إني رأيت رؤيا هالتي ،

(١) Encyclopedia of Islam "Arabs".

(٢) Babylonian Literature P. 33. Second dream of King Isdubar.

(٣) قيل إنه تبع الحميري في المسعودي ص ٣٩٥ وفي كتاب التيجان ص ٢٩٣ .

وفزعت لها ، فقالوا : قصها علينا نخبرك بتأويلها . فقال : إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم في تأويلها ، ولست أصدق في تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها فقال بعضهم لبعض : إن هذا الذي يروع الملك لا يجده إلا عند شق وسطيح . فلما أخبروه بذلك أرسل من أتاه بهما . فقال سطيح : أيها الملك إنك رأيت حمة (قطعة من النار) خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة ، وأكلت منها كل ذات جحمة . فقال الملك : ما أخطأت شيئاً فما عندك من تأويلها ؟ فقال سطيح : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليلكن ما بين أس إلى جرش . فإذا قارنا بين هاتين الأسطورتين وجدنا أن الملك ازدوبار رأى قطعة من النار في المنام فبعث رسولا إلى كاهن عظيم معروف في ذلك الزمان فأتاه به وعبر حلمه بأن تقوم الحرب ضد الملك ، وهذا هو فحوى الأسطورة العربية ، وذلك لأن الملك التبعي رأى مثل ازدوبار أى قطعة من النار ، وبعث رسولا إلى كاهن معروف عبر حلمه كما عبره هيباني .

ومما يدل على تأثير العرب بكلدنيا وآشور أن من عادة العرب تقديم الليالى على الأيام كما قال البيروني : « إن العرب فرضت أول مجموع اليوم والليلة نقطة المغرب على دائرة الأفق فصار اليوم عندهم بليته من لدن غروب الشمس عن الأفق إلى غروبها من الغد ، والذي دعاهم إلى ذلك هو أن شهورهم مبنية على مسير القمر ، مستخرجة من حركاته المختلفة ، وأوائلها مقيدة برؤية الألهة لا الحساب^(١) . وهذا يخالف نظرية الروم والفرس ويوافق نظرية الكلدان الذين كانوا يقدمون إله القمر على الشمس ، وكانوا يعتبرون الإله سين الرئيس والقادر . ودليل آخر أن العرب تأثروا بوثنية الكلدان وآشور وهو ما قيل من أن كلمة صنم أصلها صلم (Salm) وهى كلمة آرامية دخلت البادية العربية ، فثبت

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني .

أن أسماء الأوثان لم تدخل هي فقط في بلاد العرب بل دخلت أيضاً كلمة الصنم مع دخول التمثال فيها ، ويؤيده ما ورد عن أصنام تهامة . فقد قيل إن لوح تهامة يذكر أسماء الأصنام الآرامية الثلاثة وهي : صلم وسنكال وعشره . والصلم هذا في تفسير بعض العلماء عبارة عن بعل ، وكذلك عبد العرب اللاتو (Allatu) ومامناتو وبعل (هبل) كما كان البابليون يعبدونها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه ثابت أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بالفنون الجميلة ، فالظاهر أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج . وسواء أكانت هذه الأصنام مجلوبة في عصر حديث ، أو جاء بها العرب حينما افترقوا من إخوتهم الساميين ، فليس منشؤها قطعاً بلاد نجد والحجاز . وإذا كان تحول الإله من بلد إلى آخر يشخصه في شخصية غير التي كان يتمتع بها في موطنه الأصلي ، كما كانت الأساطير التي نسجت حول ذلك الإله تصبغ بصبغة محلية وفق تبديل الإله من صفة إلى صفة أخرى تحت تأثير البيئات المختلفة فسنذكر من أشهر الأصنام البابلية التي انتشرت عبادتها عند العرب والأصنام التي نعرف عن أساطيرها شيئاً ما ، وترك الآلهة التي لا نجد سوى أسمائها . ومن أراد أن يطلع على تلك الأسماء الإلهية المتراكمة فحسبه ما ذكره الكلبى في كتاب الأصنام التي نسج الأستاذ وهوسن (Wellhausen) حولها شبكة تخمينات وقياسات منطقية وبنى عليها الأستاذ نولدك آراءه في مقالة « العرب » . أما أنا فلا أرمى إلى تلك الغاية ، وذلك لأنى أبحث عن تطور التفكير العربى مستدلاً بأساطيرهم الموجودة . فهناك أشهر الأصنام وأساطيرها :

قبل :

(۱) أنساب العرب القدماء جورجی زیدان .

» » » » » » P. 36. (३)

Hastings Dictionary of Bible " God " P. 201. (o)

(Adones) وكان اسمه البابلي «تموز»^(١) وهو يلقب بالمردوخ (Marduke) وبعل أيضاً . وقبل أن أقول شيئاً في صفة هبل في الحجاز ونجد أرى أن أترجم ما قاله نولدك في هذا الصدد ، قال : إن اللقب الإلهي بعل «السيد» الذي كان معروفاً عند الساميين الشماليين ورثه عرب جزيرة سيناء تحت اسم بعلو . والذي وجد في النقوش عقب أسماء العلم مثل «عبد البعل» و «أوس البعل» و «جرم البعل» . ووجدت عبادة هذا الصنم بأرض شرف البعل التي كانت على الطريق الواصلة بين المدينة وسوريا ، ولم تكن التسمية به عند العرب المتأخرين ، ولكن بعض الكلمات العربية تدل على أنه كان معروفاً عند العرب زمننا ما ، ومن أمثال ذلك الكلمة «أرض البعل» أو «البعل» فقط ، يطلق على الأرض التي لا تزرع من المطر ولا من الري بالآلة ، بل تسقى من عين مختبئة تحت الأرض ، ولذلك تأتي بأبرك الأثمار^(٢) . وخلاصة ما قاله نولدك أن بعل ليس عربياً ، بل أخذه العرب من جزيرة سيناء وعرفوه لفظاً ومعنى ، وقد ورد في التنزيل : «أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين» ، فقال الله سبحانه بعلاً ولم يقل هبلاً ، وفي هذا ما يدل على أنه كان يسمى بعلاً عند بني إسرائيل . وقد يكون له علاقة بأم هيبير (Umm - Hubur)^(٣) وهو من ألقاب تيامات (Tamtu)^(٤) البحر الأسطوري عند البابليين ، فقد قيل إن البابليين ينسبون خلق كل شيء إلى نهر أسطوري . وذهب الباحث عن مبدأ هذا النهر إلى أنه الفرات نفسه^(٥) ، وأن أم هيبير من ألقابه ، ولا تخفى المشاكلة اللفظية بين هيبير

Golden Bough P. 325. Myth of Adonis (١)

Hastings Encyclopedia of Religion & Ethic. "Arabs" by Noldeke. (٢)

Umm - Humbur. (٣)

P. XC. IV Seven Tablets of Creation. (٤)

Vol. I, edited by L. W. King. (٥)

وهبل . وكذلك يتفق معنى بعل « السيد » بمعنى هبيل الذى يراد به ما فوق ، والواقع أن « بل » (Bel) ^(١) كان إله الأرض والإنسان عند البابليين ، وبعل إله الخصب والزراعة فى بلاد إسرائيل ، فالمحتمل فى هذه الحالة أن يكون هذا الإله إله الخصب عند العرب أيضاً ، والدليل على ذلك أن عمرو بن لحي قدم بصنم يقال له « هبل » ^(٢) من هيت من أرض الجزيرة ، وكان هبل من أعظم أصنام قريش ، فنصبه على البئر فى بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده وكان اسم البئر التى فى بطن الكعبة الأخسف ، وكانت العرب تسميها الأخشف . وقد بينا سالفا تقديس العرب لمواطن الماء ، وإقامة هبل على بئر يشير إلى أنه كان له علاقة بالرزق والخصب فى عقيدة العرب أيضاً . كما كان اليهود يعتقدون أنه إله النعمة والسعادة ، ويؤيد ذلك أيضاً ما ورد من بين الأقداح السبعة عند هبل التى ذكرها الأزرقى قال : كان قدح فيه « المياه » ^(٣) فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح ، وفيها ذلك القدح ، فحيث ما خرج عملوا به ، وقالوا : « يا إلهنا هذا فلان أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق » . لكن العرب لم تقتصر على الاستقسام به على المياه فقط ، بل كما قال الكلبي إنهم استقسموا بهبل ، وكان فى جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح مكتوب فى أولها صريح والآخر ملصق ونحو ذلك . فهذه صيغة محلية دعت البيئة إلى أن تطبق العقائد القديمة الخارجية على العقائد العصرية الموضعية . فجعلت الأقداح للقضاء والقدر حسبا جرت عادة العرب فيه من قبل . وليس من

P. 14. Babylonian Religion. (١)

(٢) أخبار مكة ، الأزرقى ص ٦٨ .

(٣) » » » » ٦٨ .

المستغرب أن يكون الصنم على صورة الإنسان ، وذلك لأن بعلا كان كذلك عند الكلدانيين والآراميين ، فإنهم كانوا يصورون^(١) « بيل » على صورة ملك جليل جالس على عرش عظيم ، ولم تشك العرب وكذا المستشرقون في العصر الحديث في كونه مجلوباً من الخارج كما قال ابن الكلابي^(٢) : « كان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى — أدركته قریش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب » . وكان لصناعة اليد المكسورة هذه أثر خالد في العقلية العربية التي أخذت منذ ذلك الزمن تتصور الإله في صورة الإنسان حقيقة ، كما يظهر من الخرافة التي رأت العزى في صورة امرأة . فالعرب صوروا هبل كما صور الكلدانيون بعلا وعبدوه كإله الخصب مثل عقيدة اليهود فيه ؛ ولذلك لا أتردد أن أقول إن هبل كان إله الخصب والرزق ، ومن ثم إله السعادة وشبه رب الأرباب في عقيدة العرب ، وهو الإله الذى عناه عمرو بن لحي حينما قال^(٣) : « إن ربكم يتصيف بالللات ابرد الطايف ويشتو بالعزى لخرتهمامة » .

الموت :

هى^(٤) كلمة قديمة وردت في الأدب البابلي الذى يرجع عصره إلى ثلاثة آلاف سنة تقريباً . وهى اسم إله من آلهة البابليين ، وكانت هذه الآلهة من بنات رب الأرباب وأخواتها وهى : مامناتو (Mamnatu) وعشتار (Ishtar) . وتظهر اللات في قصيدة فروسية ازدوبار (Epic of Isdubar) كالملكة التى تحكم وتأمّر على الهاوية التى سجنّت فيها « عشتار » ، ووصف الشاعر لتلك الحالة يثبت لنا أن اللات تمثل فصل الصيف ، كما تمثل عشتار فصل الشتاء

(١) تاريخ كلد وآشور المجلد الأول ص ٧ (٢) كتاب الأصنام ص ٢ .

(٣) أخبار مكة ص ٧٤ . (٤) Babylonian and Assyrian literature P. 94.

أو الربيع ، ففي موقف من مواطن تلك القصيدة يصف الشاعر سجن عشتار ويقول : « إن عشتار^(١) سجننت فأمحي الحب والحياة والخصب عن وجه الأرض ، فسلط حكم اللات على الأرض وهو حكم شدة الشمس المحرقة والعطش والبؤس والفقر والفساد ، ثم بعث رب الأرباب رسولا إلى اللات وأمره أن يرش الماء على وجه اللات الغضبي ويهدي شدةها بتلقيبها بألقاب متعددة لكي تفرح اللات برؤيته May allat's face rejoice before thy Sight^(٢) . فاللات تغيرت أحوالها حسبما اقتضى العصر كتغيير الآلهة البابلية الأخرى ، وحينما دخلت اللات في سوريا أصبحت قرينة حداد (إله المطر) ، وسميت بآبارجيتس^(٣) . ثم أخذها النبطيون وسموها ربة البيت ، ويظهر أن ذا شرى سموه رب البيت كما يظهر من نقوش النبطيين ومن نقوش أميرا في بعلبك^(٤) ، وقيل على رواية إيبفانيوس (Epiphanius) إن ذا الشرى لم يكن إلا شكلا من أشكال اللات^(٥) ، ولذلك يصح ما روى ولھوسن من أن اللات إلهة الشمس^(٦) ، ويؤيده قول استرابو (Strabo) الذي قال : إن النبطيين يعبدون الشمس . وخلاصة^(٧) القول كانت عبادة الشمس دخيلة في العرب كما قال ابن الكلبي : « هي أحدث من مناة » وهي من الأصنام التي جاء بها عمرو بن لحي حسب رواية العرب ، فأخذها العرب من النبطيين ، أما الدليل على أن العرب أخذوها

(١) Babylonian and Assyrian literature P. 93.

(٢) 94. » » » » »

(٣) Encyclopedia of Religion & Ethic " Syria ".

(٤) P. 18. The Religion of Ancient Palestine through the light of Arceology.

(٥) Kinship & Marriage P. 298.

(٦) Encyclopedia of Religion " Arabs ".

(٧) The Geography of Strabo P. 369.

من النبطيين فهو كونها صخرة مربعة بيضاء عند العرب كما كانت صخرة مربعة عند النبطيين^(١) . وكانت بنو ثقيف يسمونها ربة كما كان النبطيون يلقبونها بربة البيت ، وكان البابليون يرون فيها تمثال فصل الصيف والنبطيون يعتبرونها إله الشمس ، وكذلك العرب ينسبون إليها فصل الصيف كما قالوا : « ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف » ، أما ما يتعلق بقولهم أن رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة ثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مروا فيلت سويقهم ، وكان ذا غنم فسميت صخرة اللات ، فمات فلما فقدته الناس قال لهم عمرو^(٢) : إن ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة^(٣) ، فهو أسطورة حديثة اخترعت بعد ما ضاعت الخرافة القديمة التي بينها آناً . ويجوز أن تكون هذه الصخرة غير الصخرة المربعة التي كانت تسمى باللات فإذا صح ذلك جاز أن تنسج هذه الأسطورة حول آلات ذى العرجاء التي قال فيها أبو ذؤيب^(٤) :

فكأنها بالجزع بين تباع وآلات ذى العرجاء نهب مجمع
وأما الأسطورة الثانية فاخترعت بعد ضياع الأسطورة السابقة فهي لا تبين أى صفة من صفات الآلهة المذكورة ، وذلك لأنها فكرة عربية خالصة ، وهي نتيجة العقلية التي لا تخرج صوراً خيالية ، وكلما حاولت هذه العقلية توليد الأسطورة حول ذلك الوثن ، نسبت الصخرة أو العين مع أكتها (آلات ذى العرجاء) إلى الرجل المحترم الذي كان يخدم الحبيج على مجرى عاداتهم القديمة .

العزى :

نرى في النقوش^(٥) البابلية كلمة (Izzu-Sarri) وذهب المفسرون في تفسيرها

(١) Kinship P. 299.

(٢) أخبار مكة ص ٧٤ .

(٣) أخبار مكة ص ٧٤ .

(٤) معجم البلدان المجلد الأول ص ٣٢٠ .

(٥) Babylonian literature P. 12.

إلى أنها تدل على ملك النار ، وإذا كان يراد بالنار ملكا فعنى العزو « النار »
 فى اللغة البابلية . أما فى العبرية فهى مشتقة من مصدرين إما من عزاز يعنى
 شدد وقوى ، وإما من عز « يعنى ألبأ ، فالحتمل أنه يراد بالعزى فى العبرية ^(١) »
 الأقوى . وعلى رواية تيودورس بركوفى هى نجم ، كما قيل إن « استرتهى نجم
 الصبح . ولها أسماء كثيرة تختلف باختلاف الألسنة ، فطبي دعتها عوزى ،
 واليونان أفريدوت (Aphriduta) ، والقدشيون طشمقيت ، والكلدان بلتى ،
 والآراميون استيرا ، والراداتيون ملكة شعيا ، والعرب ناقي ^(٢) . فيظهر من كل
 هذا أن كلمة العزى من لغة بنى طي ؛ والمعروف عند المؤرخين القدماء أنهم كانوا
 يسمون العرب طيئا ^(٣) . فنستطيع إذن أن نقول إن العزى عند العرب هى بيلتى
 أو عشتار عند البابليين ، وقد قيل فى الأدب البابلي إن عشتار دعيت ميليتا
 (Mylitha) أو بيلتى (Bellits) فى عصر هيرودوت ^(٤) . وقصارى القول أن
 العزى عند طي هى عشتار عند البابليين . وقد انتشرت عبادة عشتار فى البلاد
 العربية كغيرها من الآلهة البابلية ^(٥) ، وتغيرت أحوالها بتغير المناطق والأقاليم ،
 وإن بقيت معها بعض مزاياها السابقة ، فاندجحت فى عبادتها طقوس عبادات
 متعددة فكانت عشتار (إله فصل الربيع والحب) وحبشية مردوخ (Marduke)
 أو بعل (Bél) إله الأرض والإنسان فى بابل ، ثم أصبحت عشتار نجم الصباح
 فى عصر حمورابى . ولو صح ما ذهب إليه فريزر فثلث عشتار دور أفريدوت
 (Aphrodite) عند الإغريق وهى التى خبأت أدونيس (بعل) عند طفولته

(١) P. 105. Religion of Palestine.

(٢) تاريخ كلد وآشور المجلد الأول لأزدشير ص ٨ .

(٣) Historians History of the World.

(٤) Babylonian literature P. 65.

(٥) منع انتشار عبادة بعل .

في الصندوق الذى أودعته عند برسيبون (presephone) (اللات) ^(١) ثبت أن عشتار وبيلى وعزى كلمات مترادفة المعنى .

لاريب أن العرب عبدت العزى ، يقول نولدك : « إن الشاعر السورى إسحاق الأنطاكي الذى كان يعيش فى أوائل القرن الخامس يذكر عبادة العزى عند العرب المعاصرين ، وفى بعض المواقف يحقق أن العزى هى الزهرة (Venus) . وفى أوائل القرن السادس أهدى المنذر ملك الحيرة إلى العزى قرباناً من الإماء الأسرى كما ذكر ذلك لنا الكاتب السورى الذى كان معاصره . وقال أيضاً معاصره بروكوبيس إن المنذر نفسه قدم ابن حليفه المسيحى الملك الحارث قرباناً إلى العزى وكان أسيره . وذكر لنا عبادة الزهرة عند العرب كثير من المؤرخين مثل إيفرمن سيرس (المتوفى ٣٧٣ بعد المسيح) وجرومى وتيودورس وايفاجنيس . وحكى نيلوس (Nilus) (المتوفى سنة ٤١٠ م) قصة القبيلة العربية البدوية التى كانت تهذى الذبائح فى صورة متوحشة إلى نجم الصبح تحت اسم العزى على أغلب الظن ^(٢) ، وكذلك قال الكلبى إنها كانت أعظم الأصنام عند قریش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون إليها .

عبدت العرب العزى ، ولكن ما هو الدليل على أن عبادتها دخيلة وأنها هى نفس عبادة عشتار ؟ رأينا أن عشتار كانت تمثل فصل الشتاء فى أسطورة تموز البابلية ، ثم مثات الخصب والحب والجمال ، وأصبحت بنت الإله أى أم بنى آدم ، وتطورت من صفات أرضية إلى صفات سماوية حتى صارت الزهرة عند الإغريق . وهكذا نرى تطور العزى عند العرب ، فكان لها فى مبدأ الأمر

(١) Golden Bough the Myth of Adonis.

(٢) Encyclopedia of Religion & Ethic "Arabs."

علاقة بالشتاء كما يظهر من قول العرب : « إن ربكم يشتو بالعزى لحرتهامة »^(١) . ثم صارت إلهة الخضر حينما قامت على ثلاث سمرة في وادي نخلة ، وصعدت إلى السماء في صورة امرأة حسناء وسميت الزهرة كما قال البلخي في قصة هاروت وماروت : « اختلف المسلمون في ذلك اختلافاً كثيراً ، فروى بعض أهل الأخبار أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم قال للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » . فلما خلق آدم وأظهرت ذريته في الأرض الفساد ، قالت الملائكة : يارب أهؤلاء الذين استخلفتهم في الأرض ؟ فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة ينزلهم إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ، ففعلوا ، قيل وجاءتهم امرأة فافتتنوا بها حتى شربوا الخمر وقتلوا النفس وسجدوا لغير الله سبحانه وتعالى ، وعلموا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء فصعدت ، حتى إذا كانت في السماء مسخت كوكباً ، وهي الزهرة ، قالوا : وخير الملكان بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا ، فهما معلقان بشعورهما في بئر بأرض بابل ؛ يأتيها السحرة فيتعلمون منها السحر » . وقد روى عن ربيع بن أنس^(٢) أنه قال في هذه القصة كانت امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة ، مع أنه ليس في كتاب الله شيء من هذا ، ويظهر من هذه الرواية أن خرافة مسخ الزهرة دخلت في قصة هاروت وماروت على يد المفسرين تحت تأثير دواعي العصر ، فإذا طرحنا مسخ الزهرة من قصة هاروت وماروت فإنه لا يضر ولا ينقص شيئاً من أساس القصة . أما ما يتعلق بجزاء الملكين فكفي ضلالتهم في تعلم السحر وقتل النفوس والشرك بالله بأن يعذبهما الله تعالى .

وخلاصة هذه الرواية أن العزى عند العرب مثلت امرأة حسناء في صورة

(١) أخبار مكة ص ٧٤ . (٢) البدء والتاريخ للبلخي ج ٣ .

الزهرة مثلما ظهرت في بابل وعند الإغريق رأت كافة طقوس العبادة التي رأتها عشتار عند البابليين . كانت امرأة حسناء و بنتاً من بنات الله في تصور العرب ؛ كما كانت امرأة حسناء و بنت الإله عند البابليين . أما في الخرافة التي تقول إن خالد بن الوليد بعث إلى العزى ليهدمها ، فخرج خالد بن الوليد وهو متغيظ ؛ فلما انتهى إليها جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناثرة شعرها ^(١) ؛ فإنا نرى الوجه الجميل قد تغير فيها إلى وجه امرأة سوداء كريهة المنظر ، وما ذلك إلا رد فعل الأسطورة القديمة في عصر الإسلام ؛ وهاك دليلاً آخر ، قال كوك (Cook) ^(٢) وهو يصف تمثال عشتار : إنها امرأة تلبس القلائد والقرط والقناع ، أما القناع فهو من ميزات تمثال عشتار ، وكانت هذه الإلهة تسفر عن وجهها أمام عبادها فقط . وقيل إن مثل هذا السفور يتراءى لنا في الألواح الأكادية . وكذلك ^(٣) وجدت الآلهة الملبسة القناع في بترا (Petra) فالقناع الذي كان من ميزات عشتار كان للعزى في تصور العرب كما قال شاعر :

أعزى شدى شدة لا تكذبى أعزى ألقى القناع وشمى
أعزى إن لم تقتلى المرء خالداً فبؤى بإثم عاجل أو تنصرى ^(٤)

وصفات العزى المتعددة هذه حملت نولدك على أن يشك في كونها إلهة نجمية في عقيدة العرب المتأخرين ، إلا أن العادات الكثيرة المتعلقة بعبادة نجم الصباح عند البابليين وغيرهم توافق العادات التي انتشرت عند العرب في عبادة العزى ، وورد في الأدب البابلي أن البنات كانت تباع في عيد عشتار ^(٥) في

(١) أخبار مكة ص ٧٥ ، وبتغير بسيط في كتاب الأصنام للسكبي .

(٢) Religion of Palestine P. 126.

(٣) Foot-note Bel. Pales. P. 126.

(٤) كتاب الأصنام وأخبار مكة ص ٧٥ .

(٥) Babylonian literature.

عصر ازدوبار (Isdubar) ، وكذلك قال اسمث إن الزهرة بأرض ألوسة كانت الإلهة (ذى الخلصة) التي انتشرت عبادتها بنباله في اليمن ، وكانت تجتمع حولها نساء دوس في عيدهم^(١) ، وكذلك كان للعزى علاقة بالنساء والزواج ، وهذا ما نراه في عادات العرب الجاهلية ، قال الألوسى : كانت المرأة من العرب إذا عسر عليها خاطب النكاح نثرت جانباً من شعرها وكحت إحدى عينيها مخالفة للشعر المنشور ، وحجبت على إحدى رجليها ، ويكون ذلك ليلاً ، وتقول : « يا نكاح ! أبغى النكاح قبل الصباح ! »^(٢) ، فيسهل أمرها وتزوج عن قريب . فانظر إلى كلمة « قبل الصباح » فإنها تدل صراحة على أن تلك البائسة تحذر وتنذر الناس في تسهيل أمرها قبل طلوع نجم الصباح ، وزيادة على ذلك كان الحمام والغزال من حيوان عشتار عند البابليين والسوريين ، وكذلك كان يقدس الحمام والغزال وقد وجدت الغزال في بئر زمزم ، ولا يخفى أثر الغزال في حياة العرب الجاهليين ؛ واقد كانوا بهرمين بتشبيه النساء الجميلات بالغزال . فهذه المقارنة بين صفات العزى وعشتار تحملنا على أن عبادة العزى عند العرب هي نفس عبادة عشتار . ويؤيد كونها دخيلة في الحجاز قول الكلبي : « هي أحدث من اللات ومناة ، وذلك أنى سمعت العرب سمت بهما قبل العزى »^(٣) .

وإذن نلخص القول فنقول : إن العزى عند العرب تقابلت في كافة الطقوس الأرضية والسموية التي تمتعت بها عشتار عند البابليين ، فالعزى بنت « هبل » إله الخصب والرزق ، ومثات فصل الشتاء ضد اللات التي مثات فصل

(١) P. 301. Kinship & Marriage.

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) كتاب الأصنام للكلبي .

الصيف ، ثم أصبحت نجم الصباح حينما ظهرت اللات في صورة الشمس . ليس بغريب كل هذا لأن الفصول^(١) في فلسطين كانت تمثلها صورة امرأة .

مناة :

اشتقاقها في اللغة العربية إما من (م . ن . ن) أو من (م . ن . ا)^(٢) . أما الأول فهو إما بالضم مثل المنة فمعناها القوة ، وإما بالفتح (منة) ومعناها القطع أو النقص ، ومنه قوله تعالى (فلهم أجر غير ممنون) ، ومنه المنون « الدهر » والمنون أيضاً المنية لأنها تقطع المدد وتنقص العدد . وأما الاشتقاق الثاني فمنه المنية ويراد بها الموت ، واشتقاقها من منى له أى قدر والجمع « المنايا » ، والمنية واحدة المنى ، وقال صاحب مفردات القرآن « المنى التقدير » يقال منى لك المانى « أى قدر لك المقدر . وكذلك أراد به صاحب لسان العرب القدر إذ قال : « حتى تبين ما يبنى لك المانى » ، فيراد من « مناة » القدر عند اللغويين . والواقع أن القدر كان مركز أفكار العرب ، والمحور الذى كانت تدور حوله رعى التصورات الجاهلية ، ولقبه الشعراء الجاهليون بأسماء مختلفة مثل المنون والمنية ، والدهر ، والزمان ، وأشبه ذلك . يعبر عنه طرفة بالأيام كما قال : « ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا » . فهذه الأسماء المختلفة والتشبيهات الشعرية دعت نولدك إلى أن يزعم « أن العرب صوروا بعض المعانى فى شخصية الإله وشخصوها بجميع المزايا المادية ، وذلك لأنهم منذ عهد قديم عرفوا بعض القوى الطبيعية التى تتوقف عليها سعادة الإنسان وشقاوته ، أجل إن كثيراً من هذه الشخصيات لا يتجاوز حدود الشعر ، ومنها الزمان الذى يتوهمه العرب بأنه السبب الوحيد لنعيم العيش

Religion of Palestine P. 205. Foot-note. (١)

(٢) مختار الصحاح .

وشظفه ، كما يزعم الذين قالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » . وكذلك يلمح الشعراء إلى تأثير الدهر والزمان الذي يقبونه بالليل والنهار ، ويصورونه كالذي يسوق الناس إلى الموت ، وكالرامي الذي لا تطيش سهامه . وقال الأستاذ في موقف آخر : إن شاعراً من قبيلة بني بكر بن وائل أنشد في بيت من أبياته أن « سهام عوض (الدهر) رمته في عضلاته ومفاصله ، والعوض على رواية الكلبي صنم بكر بن وائل وكان الشاعر من تلك القبيلة نفسها . ومن هذه التشبيهات يستدل الأستاذ على أن العرب شخصوا المعاني في شخصيات مادية خيالية^(١) . » نعم « لقد كان الدهر رامي السهم وساقى كأس المنية في تصور العرب ، لكن العرب لم يكتفوا بهذه التشبيهات بل قالوا :

والمنايا جواشم كالصقور المدلة

ومثلوا المنية بالأعمى ، كما شبهوا فعل المنية بنحيط عشواء كما قال الشاعر :
 رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم^(٢)
 فكان المنايا تأتي على غير قصد بخلاف القدر يأتي بالقصد ، وكذلك المنية لا تنحصر في القضاء والقدر ، بل تكون على قول ابن شميل منى بمعنى ذبح^(٣) .
 وعلى رواية الجوهري يراد بالمنية الناقة الأيام التي يتعرف فيها الألقاح هي أم لا ، فظهر من هذا أن العرب استعملوا كلمة المنية بمعنى القدر مجازاً ، ونستدل على ذلك بأن منى موضع بمكة قديم العهد ، وسمى منى على رواية لسان العرب^(٤) : « لما يمني فيها من الدماء » أي يراق ويؤيده ما قال ابن شميل : « سمي منى لأن الكبش منى به أي ذبح » . فقد يكون منى في أول نشأته مذبح الجاهليين ، وقدس عند العرب كتقديسهم للأحجار الأخرى . وقد بينا الأسباب التي دعتهم إلى عبادة

(١) Encyclopedia of Religion & Ethic « Arabs. »

(٢) معلقات . (٣) لسان العرب . (٤) لسان العرب ص ١٦٣ .

الأحجار . أما ما يتعلق بقول نولدك من أن العوض الذى يراد به الدهر كان صنما تعبده العرب فهو فكرة شاذة ، كما يعترف بها الأستاذ نفسه . والعرب على جرى عادتهم أطلقوا معنى الدهر على أشياء مختلفة ، فكان اللبد بمعنى الدهر ، والعوض نفسه من أسماء النور التى لم تكن إلا عبارة عن عمر طويل فى أسطورة لقمان بن عاد التى ذكرناها سالفاً . فلا إخال أن شغف العرب بالدهر وبما يتعلق به دعاهم إلى تصور الدهر فى شخصية الإله مثل الأم المتحضرة ، كلا ! لم يتطور التطور العربى إلى درجة خيال كهذه فى الأيام الجاهلية . ودليل آخر على ذلك ، أضافت العرب الضمائر المستترة إلى المنية فقالوا لحقنى الدهر ، أدركته منيته ، وكذلك استعمل كثير من الشعراء كلمة المنايا جمعاً أكثر مما استعملوها مفردة فقال مثلاً أبو ذؤيب : « منايا يقربن الختوف لأهالها » ، وكذلك قال السويد بن عامر المصطلق « إن المنايا توافى كل إنسان » ، وقال زهير بن أبى سلمى « فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا »^(١) ، فثبت من هنا أن للمنية تصورات متعددة فى ذهن العربى ، ولم تجتمع صفات الموت والقدر والزمان فى شخصية واحدة ، فكيف والحالة هذه نعتقد أن العرب شخصوا الدهر فى إله ، وأنهم أقاموا الصنم معبرين به عن تلك الأحلام . وفضلاً عن ذلك لم تتفق العرب فى تشبيه الدهر ، فصوروه تارة فى صورة الراعى الذى لا يطيش سهامه ، وتارة أخرى فى صورة الصقر وشبهوه ثائثة بالأعشى الذى يخبط خبط عشواء فى تنفيذ أعماله ، فلم يرسموا الدهر على لوح ذهن فى صورة كاملة . فهذه التشبيهات مع نقائصها لم تكن إلا خيالا شعرياً ، وكل ما يمكن استنباطه من تلك التشبيهات فهو لا يزيد عن كونه دلالة على تطور التصور العربى فى عصر متأخر ، وأن ذلك التطور لم يصل إلى درجة الخيال القصصى المبنى على ارتباط العلة بالمعلول ارتباطاً منسجماً

مثل اليونان والإغريق . فثبت أن العربي لم يمثل القدر إلهاً ، واكتفت عقليته الساذجة المحدودة أن تقنع بأن الدهر هو الحبي والميت ، ولم يطرأ بباله يوماً ما أن مجرد هذا الدهر مما يحيط به من المادة والمحسوسات ، وأن يصعد به إلى سماء المعاني المجردة . ولكن هناك^(١) صنم على ساحل البحر من ناحية المثل بقديد بين مكة والمدينة ، يسمونه مناة ، وههنا أوس وخزرج يعظمونه ويذبحون له ويهدون إليه ، وهذا عمرو بن الجوح^(٢) اتخذ في داره صنما من خشب يقال له : « مناة » وقد تسمى العرب عبد مناة وزيد مناة فماذا كان المراد بهذه العبادة عند العرب ؟ لقد بينا سابقاً أن التمثال مع كلمة الصنم دخيل في بادية الحجاز ونجد فكانت مناة هذه صنما وفق ما ذكره أغلب الرواة ، وكانت أقدم الأصنام التي جاء بها عمرو بن لحي كما قاله الكلبي ، فبديهي أن عبادتها دخلت في بادية الحجاز ولم تولد فيها ، ويؤيده ما ورد في الأدب البابلي أنه كان لهم آلهة الموت والقدر باسم مامناتو^(٣) (Mamnatu) ، وكذلك ورد مناواة في أقدم النقوش النبطية^(٤) . فلا يخفى على القارئ المشابهة البارزة بين كلمة مامناتو ومناواة ومناة . وأما من قال إنه صخرة (لسان العرب) فيجوز أن تكون عبادة مناة المجلوبة اندمجت في عبادة منى القديمة ، ثم اشتبه الأمر على العرب المتأخرين فشتت آراءهم ، وانتصرت فكرة المتحضرين على البداوة . وقد تكون تلك التشبيهات من منتجات ذلك التصادم الفكري .

وخلاصة القول كانت مناة العربية هي نفس مامناتو البابلية ، لأن الدهر والقدر في تصور العرب والشعراء الجاهليين رجل لا امرأة ، أما « مناة » فهي

(١) كتاب الأصنام صفحة ١٣ . (٢) سيرة ابن هشام صفحة ٢٧٢ .

(٣) Babylonian literature P. 93.

(٤) Encyclopedia of Ethic & Religion « Arabs. »

بنت الإله عند العرب . قال تعالى : (أَلَمْ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى) كما كانت بنت الإله عند البابليين ، وقد مثلت الموت عند العرب كما كانت تمثل الموت والقدر أيضاً عند البابليين ، وقد قالوا في خطابهم إلى ما مناتوا : « يا مناة يا إلهة القدر والموت » « ويا أيها الروح الخفيف وملك الموت ^(١) » .

“Omam-mitu, Thou God of Fate & Death”.

“Thou spirit of fierce hate & porting breath”.

فمناة عند العرب تمثل الموت لا الدهر ، لأن الدهر في تصورهم ذكر ومناة أنثى . وقد يكون من أجل هذا استقسم العرب عند هبل وذى الخلصة ، ولم يستقسموا عند مناة بل حلفوا أمامها كما يقول عبد العزى بن وداعة المزني :
إني حلفت يمين صدق مرة بمناة عند محل آل الخزرج ^(٢)
وتأثير هذا الحلف والوفاء بالعهد في حياة العرب الاجتماعية لا يحتاج إلى مزيد التعريف ، ويؤكد صفة مناة ما قيل من أن سيفين (مخدوم ورسوب) وجدا عند مناة حينما هدمت عام فتح مكة ^(٣) لأن السيف رمز العدالة والإنصاف عند أهل البادية .

ود :

اشتقاقه في اللغة ^(٤) العربية من ودد يعني تمنى أو أحب ، وهي قريبة من كلمة بابلية دودو (Dndaim أو Du Du) ويراد به شجرة الحب (man-Drahc) ^(٥)
وقد تكون (ودد) العربية (دود) العبرية أو البابلية ، لأن كثيراً ما يحدث

(١) Babylonian literature P. 110.

(٢) كتاب الأصنام ص ١٤ . (٣) كتاب الأصنام ص ١٥ .

(٤) مختار الصحاح .

(٥) Babylonian literature Page 2.

التقديم والتأخير في استعمال الحروف ، فمثلا كلمة « حنش » تكتب في العبرية نحش ، وكلمة جنوب تكتب نجب ، لذلك يمكن أن يكون الفعل ودّ الذي هو في العبرية دود يدل على الحب ، ومن هذا نعلم في العبرية أن كلمة دود (Dod) معناها الحبيب ، ثم دواديم (Dwadim) معناها الحب أو النسيب أو الغزل ، ثم يكون معنى الاسم داود . وبالعبرية (دواد) يدل على الوداد والمحبة . فيظهر أن ودّا تطور عن شجرة الحب البابلية . ويثبت أنه دخيل في بادية الحجاز كونه صنما قبل كل شيء وليس من النصب ، وقد بينا أن العرب لم ينحتوا الأصنام بل جلبوها من الخارج ، وأنهم أخذوا مع تلك الأصنام الأسطورة التي كانت تتعلق بها ، ويؤيده ما قال الكلبي أن عمرو بن لحي جاء بالأصنام من بقاء أو من هيت ، فوزعها بين قبائل مختلفة ، وكان من هذه الأصنام ودّ . هذا وقد قيل إنه صنم إغريق الأصل لأنه يشبه الصنم المعروف باسم ايرس (Eros) ودليلهم على ذلك أن تمثال ودّ كان على رواية الكلبي^(١) رجلا كأعظم ما يكون من الرجال « قد ذُبر (أودثر) عليه حلتان ، متزربحة ومرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلّده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء وفضة (جعبة) فيها نبل » فهذا يشبه إيرس الإغريق الذي يمثل الراعى بقوسه ونباله . لكن نولدك^(٢) يشك في كونه إيرس ، وذلك لأن ودّا يحمل السيف واللواء ومدثر بحلتين ، وهذا لا يوجد في تمثال إيرس (Eros) ، فهو يميل إلى أنه ليس بصنم إغريق . وكون تمثال ود لا يتفق مع تمثال إيرس لا يدل على كونه صنما عربيا بل يؤكّد أنه غير صنم إغريق فقط ؛ هذا والاختلاف في وصف التمثال لا يمنع علاقته بإيرس في وظيفته ، لأنه قد يكون إيرس نفسه تمثالا فينيقيا مثل

(١) كتاب الأصنام ص ٥٦ .

(٢) Encyclopedia of Religion & Ethic "Arabs".

أدونيس وتغيرت صورته في اليونان . وقد قيل إن ودا بهذا الاسم مثل القمر عند اليمنيين^(١) ، وتلقب مردوخ باسم دو-دو (Du-Du) في بابل^(٢) ، فكان ود يمثل بعل أستيره (Astarte) في الين وعاشق عشتار في بابل ، وصورة إيرس إله الحب عند الإغريق .

وعبد العرب ودا كما يظهر من اسم العلم « عبد ود » واتفقت روايات على أن ودا كان من الأصنام التي استمرت عبادتها من عصر نوح إلى عصر الإسلام ومثل ود دور الحب عند العرب أيضاً . وكان أول من أجاب دعوة عمرو بن لحي إلى ذلك الصنم عوف بن عذرة^(٣) ، وقبيلة عذرة لا تحتاج إلى مزيد التعريف في كونها المثل الأعلى للحب والعشق والصفة . وهذه القبيلة هي التي قيل لرجل منها : « ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة ؟ إنما ذلك ضعف فيكم يا بني عذرة ، فقال : « أما والله لو رأيتم النواظر الدعج ، تحتها المباسم القلج ، فوقها الحواجب الزج ، لا تخذتموها اللات والعزى^(٤) » ، وقصارى القول لقد مثل ود الحب عند العرب كما يظهر من انتسابه إلى بني عذرة ، ومن قول الشاعر أيضاً :

حياك ود فإننا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد غرما^(٥)

فهنا يشير الشاعر صريحاً إلى أنه كان لود علاقة بلهو النساء قبل ما يعزم الدين . وأما ما قاله نولدك^(٦) من أن كلمة « ود » لم تستعمل في الحب الجنسي عند العرب القدماء ، بل كان لهم كلمات أخرى لذلك المعنى ، فهذا لا يمنع من أن

(١) Encyclopedia Beritanica "Arabs".

(٢) The Seven Tablets of the Creation, The Fifty Tilles of Mardouke. P 173.

(٣) كتاب الأصنام ص ٥٥ . (٤) صبح الأعشى الجزء الأول ص ٣١٧ .

(٥) كتاب الأصنام ص ١٠ .

(٦) Encyclopedia of Religion and Ethic (Arabs).

يكون ود صنم الحب والعشق ، وذلك لأن ودا صنم محبوب وكذلك معناه كما قلنا سالفا . فيجوز أن يكون العرب المتأخرون استعملوا ودا في معنى الحب ولو مجازا بعد انتشار عبادة ذلك الصنم . فقول نولدك يؤكد أنه صنم خارجي ، وكذلك لفظه ومعناه .

قزح :

قيل إن كلمة^(١) كوز (Kos) وجدت في أسماء اليهود القدماء مثل باركوس (Barkos) يعني ابن كوز ، ورأى « كوك » علاقة بينه وبين الإله الأدومي (Edomite) الذي هو من أجزاء الأسماء مثل كوش ملكا (Koush-malaka) وكوش جبرى (Koush-Gabri) وهما من الأسماء التي ترجع زمنها إلى عصر تجلت بلاسر الثالث (Tiglath Pileser III) وقال « كوك » : إن كوز إله^(٢) أدومي وأنه القزح العربي والرامي اللاهوتي الذي كانت نبالة البرق وكان قوسه قوس قزح ، فقد كان إله الجبال والبرق والرعد والمطر وكان العرب يحافظون على عبادته بقرب مكة^(٣) . فهو يقابل حداد (Hadad) إله المطر عند السوريين ، وریشب (Resheph) إله الحرب عند البابليين . وصفة قزح توافق الآلهة التي كانت تمثل وظيفة إله الحرب مثل أبولو (Appolo) الإغريقي ، فظهر من هذا أنه صنم أدومي (Edomaeon) وانتشرت عبادته في أنحاء شبه جزيرة العرب واعتنقه العرب أيضاً^(٤) كما قال صاحب معجم البلدان أن جمع ضد التفرق هو المزدلفة وهو قزح

(١) Religion of Palestine P. 204.

» » » P. 203. (٢)

» » » P. 204. (٣)

(٤) معجم البلدان ص ١٣٨ .

وهو الشعر المسمى جمعاً لاجتماع الناس به ، فكان هذه الصخرة الوثن الذي عرف قوسه بقوس قزح ، والذي أصبح شيطانا في عصر الأديان . ويؤيده تقاليد العرب أيضاً وذلك لأن العرب كانوا يوقدون النار على مزدلفة ، ونار المزدلفة أشهر نيران العرب في الأدب الجاهلي . وكانوا يقصدون منها نزول الغيث ، فكان « قزح » إله الرعد والبرق والمطر عند العرب ومن ثم إله الحرب أيضاً .

الفصل الرابع

تصور الإله عند العرب

كان الناس أمة واحدة ثم اختلفوا ، فبعث الله الأنبياء ، فآمن من آمن وضل من ضل واتبع هواه ، ولم يلتفت إلى ما قال الله سبحانه وتعالى « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا »^(١) . هذا ما ورد في التنزيل ، وهو يثبت الروايات والتقاليد القديمة ، فاذا وافق الإسناد التاريخي هذه الروايات والنقول لقلنا بصفة المؤرخ إن مجيء إبراهيم في واد غير ذي زرع هو وصول فكرة التوحيد إلى البادية العربية . وإذا نحن بصدد البحث في تفكير الأمة ، فيجب أن نفضل النقل المتواتر على آراء المؤرخين . وعليه نقول إن التوحيد كان معروفاً في عصر إسماعيل كما يظهر من الروايات ؛ غير أن بني إسماعيل نسوه فيما بعد وضلوا عن سواء السبيل ، كما يظهر من بعض أقوالهم وتقاليدهم حول الأوثان . ولذلك سنبحث تصور الإله من وجهتين ، كما قسمنا بحث التفكير العربي الجاهلي في المذاهب المتعددة .

ينقسم بحث تصور الإله إلى قسمين : الأول بحث تصور الإله قبل التاريخ . والثاني بحث تصور الإله في عصر التاريخ ، وهذا البحث الثاني يتفرع إلى فرعين : الفرع الأول هو الزمان الذي كان يعاصر الأنبياء ، والفرع الثاني الزمان الذي يراد به الفترات المتقطعة بين نبي ونبي آخر ، وهذه الفترات تمثل فكرة الشعب فيما فهموا ضد الأنبياء كما بينا في تاريخ الوثنية عند العرب .

(١) سورة النساء الآية ١٣٥ .

الفصل الخامس

الإله في عصر ما قبل التاريخ

قال دافيدسون (Devidson) في مقالته^(١) (God) : « لعل الأسماء : « إيل » (El) ، و « إيلوهم » (Elahim) ، و « شدي » (Shaddai) ، و « يهوا » (Yehweh) ، كانت تستعمل في عصر ما قبل التاريخ ، فمعانيها مبهمة ومجهولة . وقيل إن كلمة إيل وجدت في نقوش كثيرة ، وعثر العلماء على أسماء مثل : وهب الإيل ، وعبد الإيل ، وزيد الله ، وعبد الله في النقوش التي اكتشفت في إقليم الصفا . ولم يرد لفظ الله أو هالله (Hallah) في النقوش النبطية كاسم علم ، بل كان دائماً يصحب اسماً من أسماء الأصنام ، إلا في نقوش الصفا التي وجد فيها لفظ الله « منفرداً بذاته » . قال ولهوسن : « لعل العرب مثل النبطيين يلقبون كل صنم من الأصنام « بالله » ، فلفظ الله الذي كان لقباً في أول نشأته أصبح علماً لأكبر إله^(٢) » . وذهب بعض الباحثين إلى أن هذا اللفظ يشتق من كلمة عبرية معناها شدد وقوى ، ويجمع الإله على إيلوهم . وورد في النثر العربي مصحوباً بالصفات كالإله الأزلي والإله المتعال ، لكن الأنبياء والشعراء يستعملونه علماً . ووجد في اللغة الآرامية كالإله (Elah) وفي اللغة العربية « إله » ، ومع أداة التعريف الإله أو « الله » ، وقال الرازي في إيراد

(١) Hastings dictionary of Bible P. 189.

(٢) Encyclopedia Ethic & Bible (Arabs).

Dictionary of Bible, by Hastings (109) c.

تفسير نثر الدين الرازي .

حجج الذين قالوا إنه اسم مشتق ، قال : فإنهم ذكروا فيه فروعا ، يقال إن الإله هو المعبود سواء عبد بحق أو بباطل ، ثم غلب في عرف الشرع على المعبود بالحق ، وقيل إنه مشتق من الوله وهو ذهاب العقل ، ومن لاه إذا ارتفع ، ومن ألّه في الشيء إذا تحير فيه ولم يهتد إليه ، ومن لاه يلوه إذا احتجب ؛ لكن المذهب المختار عنده أن هذا اللفظ اسم علم لله تعالى ، وأنه ليس بمشتق ألبتة . وكل ما ثبت من هذه المناقشات اللغوية أن كلمة الإله لها علاقة بما قبل التاريخ ، وأنهم كانوا يطلقونها على العلي العظيم أحيانا كاسم علم ، وأحيانا كلقب وثن . وبعد هذا يجدر بي أن أنتقل إلى البحث التاريخي لكي أعود إلى ما بدأت .

الفصل السادس

الإله في عصر التاريخ

بدأنا التاريخ بمجيء إبراهيم إلى مكة ، إذ ولد في العراق ونشأ في حضن الوثنية ، وبلغ رشده ، فأنكر ربوبية الأوثان ، وشرع يبحث عن ربه في المظاهر الطبيعية « فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهتدي ربي ، لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون »^(١) . فكان إبراهيم يبحث عن الخالق في الخلق وعن الصانع في صناعته ، ثم هداه الله تعالى إلى ملكوته فعرف ربه الذي لم يزل ولا يزال . وجاء بهذا الإله الغائب عن الحواس البشرية ، والمحيط بكل شيء^(٢) . وأقام له ذكراً في بادية الحجاز وجعله قبلة مباركة للناس . ثم ينقطع التاريخ إلى أن نجد شذرات في القصص التي دونت في التوراة في القرن الثامن أو العاشر . م أو في الروايات المبعثرة والمدونة في عصر الإسلام . وإذا رجعنا إلى تلك القصص نشعر بوجود فكرتين في ذلك العصر : أولاها عقيدة الأنبياء ، وثانيتهما عقيدة الشعب ؛ فكانت عقيدة الأنبياء تمثل عقيدة إبراهيم ؛ قال داودسن^(٣) : « ولم يطرق بال أي نبي ولا بال مصنفى التوراة أن يحتجوا على

(١) سورة الأنعام ٧٦ — ٧٨ وانظر H. "The Talmud, selection from" By Polons Page 33.

(٢) قرآن والتوراة في الإصحاح السادس عشر .

(٣) The Theology of old Testament. by A. B. Davidson. Page 31.

وجود الإله ، ولو فعلوا ذلك لكان من غير جدوى ، لأن الأنبياء وكتاب التوراة عاصروا البيئة التي كانت تعتقد في الإله من قبلهم » ، مع اعترافنا بقول داودسن في مصنفى التوراة ، لا نرى أنهم عاصروا البيئة التوحيدية ، وذلك لأن فكرة الشعب التي تحكى عنها التوراة نفسها تخالف عقيدة مصنفى التوراة ، وكذلك النقوش التي تفسر فكرة الشعب تخالف فكرة التوحيد ، وليس هذا بموقف يستدعى الاستغراب كما استغرب منه « كوك » حينما قال : « إن النقوش تدل على الوثنية والكتب المقدسة تدل على التوحيد » ، ذلك لأن الكتب المقدسة تعلن أنها جاءت مخالفة عقيدة الشعب . والواقع أن أودية العرب ظلت ساحة الكفاح والمناظرات بين الوثنية والوحدانية منذ عصر قديم ، ويظهر هذا من المقارنة بين النقوش التي تذكر عدة أصنام لكل بلد ، وبين الكتب المقدسة التي تهاجم وحدانياتها تلك الفكرة الجاهلية من كل صوب . وكمن الكتاب والفلاسفة في عصرنا هذا ليستمسكون بنظرياتهم الخاصة وهي تختلف عما عليه عامة الشعب ، ما دام هذا شأن النابغين ، فماذا يكون شأن الأنبياء الذين يجاهدون في إعلاء كلمة الله بتأييد الوحي والإلهام والإرادة الإلهية ؟

ظهر الأنبياء وهم يعتقدون في الإله الواحد القهار ، فكانوا يميزون الخالق عن الكائنات ، فلم يكن الإله عندهم من بين مظاهر الطبيعة ، بل كان العلة الأولى لتلك المظاهر ، ثم ورث العبرانيون عقيدة الإله الواحد من آبائهم الأوائل ؛ ولم يتدرجوا من عبادة الموجودات إلى فكرة التوحيد . ويعتقد العبرانيون أن الإنسان لم يصل إلى معرفة الإله بشق الأنفس ، بل الإله أظهر نفسه وعرف ذاته ، وكلم أتقى عباده وهداهم إلى سواء السبيل ؛ فظهر الله لموسى عند الشجرات وعلى الجبال ، وللأنبياء الآخرين في الإلهام والوحي ، ولكن العبرانيون أيضاً لم يبقوا على فكرة التوحيد كما علمهم الأنبياء ، بل كلما بعدوا عن عصر النبي

ذهبوا بعيداً عن تعاليمه ، وفي روايات التوراة نرى أن الله الذي كان هو خالق الأرض والسموات أصبح إله بني إسرائيل فقط ، وذلك لأن موسى لما ذهب إلى فرعون قال له : « هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعبدوا إلى في البرية »^(١) . فعلى هذه الرواية إنما دخل موسى مصر لينقذ بني إسرائيل من مصر ، لا ليدعو فرعون إلى إله العالم كله . كما أن يهود مصر نسوا إله إبراهيم وإله آبائهم ، حتى بلغ من نسيانهم له أن الله لما قال لموسى^(٢) : « فالأن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر » . قال له موسى : « لله من أنا حتى أذهب إلى فرعون ، وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر » . فقال : « إني أكون معك وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل » . فقال موسى : « لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم ، فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم ؟ » . فقال الله لموسى : « أَهْيَئِةَ الَّذِي أَهْيَئُهُ »^(٣) . ويظهر من هذه الآيات أيضاً أن العبرانيين هم شعب الله ، وقد قال موسى : « لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل »^(٣) . فهذا الإله المحصور في شعب بني إسرائيل هو كأي صنم آخر كانت القبائل تعبدته .

كان العبرانيون يدعون الله برب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ورب العبرانيين ، كما كان الوثنيون يدعون إلههم برب قريش ورب آشور وبابل ورب ربيعة ، ويؤكد ذلك رواية أخرى ، قيل لما جاء يثروحمو موسى وأبناء زوجته إلى موسى وبين لهم موسى ما صنع الله لبني إسرائيل على المصريين ، قال

(١) خروج الاصحاح الخامس عدد (١) .

(٢) خروج الاصحاح الثالث عدد (١٠ — ١٤) .

(٣) خروج الاصحاح الحادي عشر عدد (٧) .

يثرو: «الآن علمت أن الله أكبر من كل الآلهة»^(١). فكانوا لا يفرقون بين الله والآلهة الأخرى قبل نصرته بنى إسرائيل على المصريين؛ وبعد ما رجع بنو إسرائيل إلى فلسطين وعاشوا مدة في الخفض والدعة أخذوا يشخصونه على شاكلة الإنسان من جميع النواحي، واحتجوا بأنه «خلق الإنسان على صورته»^(٢). فلم يكن الله في تصور اليهود ذا عينين ولسان ويدين ورجلين، وإنما كان ذا عواطف ووجدان مثل البشر، فتجسدت هذه المعاني في تصورهم، فصار إله العبرانيين المعنوي إلهاً مادياً كالأصنام الأخرى، وقال داودسن: «إنه يظن أن أهل مواب (Moab) وأدوم (Adome) الذين كان إسرائيل ينسب إليهما كانا موحدين، والحق إنما كان للمواب صنم كيموش (chemosh) وكذلك كان يهوا إله اليهود في الجنوب وبعل إله بنى إسرائيل في الشمال»^(٣)، فبدأ التنارع بين هذين الصنمين وانتهى بانتصار يهوا، وظل يهوا إله بنى إسرائيل إلى أيام هجرتهم، فكان يهوا هو المحي والميت وخالق الأرض والسماوات والإنسان، وكان له بنات وبنون كما قيل «وحدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فآخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا، فقال الرب لا يدين روجي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة، كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم»^(٤)؛ ولم يفكروا أن الأرض والسماء لله جميعاً؛ ويظهر هذا جلياً إذا قرأ وصية يعقوب ويوسف

(١) ترجمة التوراة لأبي سعيد بن أبي الحسن بن أبي سعيد السامري الجزء الثاني ص ٢٠٥.

(٢) تكوين عدد (٢٧).

(٣) Dictionary of Bible P. 258.

(٤) تكوين الاصحاح السادس عدد (١ - ٤).

لأبنائهما عند الموت « فوصى كلاهما أن إله بنى إسرائيل يرجعهم إلى فلسطين ليرثوا تلك الأرض فقط ، فيؤخذ ميتهما إلى أرض فلسطين ، وأن لا يدفن في أرض مصر »^(١) .

بعد ما زالت مملكة سليمان وداود ، وأصبحت بلاد بنى إسرائيل مستعمرة الروم ، وصار بنو إسرائيل في منتهى الذلة والمسكنة ، واحتملوا الشدائد والعذاب من جميع النواحي ، أخذوا يذكرون العيشة الرغيدة التي تمتعوا بها في مملكة داود فتمثل لهم هذا الرجاء الآمل في عقيدة عودة المسيح ، وفي هذه الفترة ظلت عقلية اليهود في حالة تقهقر ، وكانت عقيدتهم تتبع عقلية السلطة والحكومة ، ولذلك أثرت فلسفة الروم والوثنية المجاورة في عقيدتهم أثراً كبيراً ، ويتجلى هذا في فرق اليهود الدينية ، فمثلاً فرقة « إسنيس » (Essenes) تنقسم إلى فريقين عمليون ونظريون ، وكانت عقيدة الفريق الأول كما يرى « موشيم »^(٢) « كانوا مثل اليهود الآخرين يعتقدون في وحدانية الإله ولكن يظهر من بعض مدارسهم أنهم كانوا يقدمون الشمس ، وذلك — غالباً — لاعتقادهم أنه إله صغير أو صنم يمثل الإله المتعال » ، « أما النظريون فكانوا أيضاً يعترفون باليهودية وكانوا يحبون أن يعرفوا بخلفاء موسى — فكانوا أجانب لتعليم موسى »^(٣) ؛ وخلاصة ما قاله موشيم في العقيدة اليهودية في هذا العصر أن فلسفة الشرق هي عبارة عن اعتقاد أن وراء الطبيعة قوة إلهية ذات علم وعقل ، وأنها الخير كل الخير ، ونور السموات والأرض ، وأنها أزلية ، وظلت في الخفاء والسكوت أزمنة طويلة ، ثم أنتجت إرادتها الشئيين ، فاختلقت المذاهب في تسميتها ، وفي عدد ما أنتجت من اختلاط هذين الشئيين . أثرت هذه الفلسفة في العقيدة اليهودية كل التأثير ؛

(١) "Talmud, Selection from" by Polans Page, 113. & 128.

(٢) The Eceliastical History. by I. d. Mosheim P. 90.

Mosheim P. 96. (٣)

وظهرت في بعض الفرق المسيحية الأولى ، وكانت العقيدة المشتركة عند اليهود أن لملك الظلام مع شركائه وعماله أثرا كبيرا في أمور الكائنات والإنسان ، وكان ذلك الأثر عظيما إلى درجة لم يترك فقط قوة في يد الإله الأكبر^(١) . هكذا كانت العقلية اليهودية في منتهى التأخر ، ولقد كان قنوطهم من خروجهم من نكبتهم ومن اشتداد السلطين عليهم داعيا أن ينتظروا قوة فوق الطاقة البشرية لتنقذهم من هذه الحالة ، وقد وجدوا في عقيدة عودة المسيح المذكورة في التوراة ما كانوا يرجون . ويقول موشيم : « إن أكثرية شعب اليهود كانت تنتظر ظهور المنقذ الذي وعد به الله آبائهم ، ولكن مقاصدهم لم ترم إلى الذي وصفته التوراة ، لأنهم ما كانوا يرجون منجى الأرواح ، بل القائد القوى القادر الذي يرجع لهم حريتهم »^(٢)

جاءت آمال اليهود بأبرك الثمار ، وظهر المسيح الموعود به من بين اليهود في عائلة داود ، ونشأ في معابد اليهودية ، ولم يعرف مسيحيته ، إلى سن الثلاثين ، وإلى هذه السن لم يكن قد ألحقت به الألوهية أو شبه الألوهية . أما بعد الثلاثين لما أعلن أنه المسيح الموعود به والمنقذ من تلك المذلة فقد عرف كابن الله على عادة الساميين الذين يسمون الأبناء على اسم رب القبيلة ، وخاصة إذا لم يعرف اسم أبيه (انظر " Deity as father " R. Smith; Religion of Semites)

لم تظهر ألوهية المسيح إلا بعد ما أعانها بولس أوسال (Saul - Paul) اليهودي العالم بفلسفة الروم واليهود إذ قال في رسالته إلى أهل كورنثوس : « أى أن الله كان في المسيح مصالحا العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم وواضعا فينا كلمة

(١) Mosheim 70. وانظر التكوين الاصحاح الأول ١٦ وهى ... فعل الله النورين

العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم .

(٢) Mosheim P. 71.

المصالحة^(١) . ويدلنا هذا إلى أن نشأة عودة المسيح كانت مبنية على أنه يخرج اليهود من تلك المذلة . فأساس المسيحية هو إصلاح اليهودية وإقامة الدولة اليهودية لا أنها دين عالمي : فالمسيحية أيضاً لم ترفع تصور الإله عما كان عليه اليهود ، بل نقلت العبادة من القديس الصنم إلى عبادة الرجل . فكان عصر المسيح عصر صار فيه الرجل إلهاً عند النصارى كما حكى عنه الله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » ثم اختلف اليهود والنصارى « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » .

هكذا كان تصور الإله عند اليهود والنصارى ، وهكذا كان تصور الإله في البيئة التي نشأ فيها بنو إسماعيل المتأخرون وظهر فيها الإسلام ، فإذا كان تصور الإله عند اليهود والنصارى كتصور الوثنيين المجاورين ، وإذا كان أهل الأديان يعبدون الشمس وتمثال مريم وعيسى ابن مريم ، فكيف تقول إن العربي الدهري بالطبع ، والوثني بالتقاليد ، كان يعتقد في وحدانية الله تحت تأثير اليهودية والمسيحية وقد ثبت أن لغة^(٢) المسيحية في الشرق كانت الآرامية أو الشامية ، ولم يوجد أثر لاستعمال اللغة العربية في المعابد المسيحية . فالعربي الجاهلي الذي لا علاقة له بفهم الفلسفة كيف يفهم فلسفة اليهود والنصارى ؟ وذلك أيضاً مما سمع عن المتكلمين باللغة الآرامية . ولذلك لا نرى أثراً لنظرية اليهود والنصارى في الشعر الجاهلي مع أننا وجدنا وصف البيئة والراهب وأثراً لعقيدة أكبر الآلهة ، وكل ما استطاع أن يقال في هذا الصدد أن العربي الجاهلي لم يتأثر باليهود والنصارى في عقيدة الوحدانية كما تأثر اليهود والنصارى بوثنيته . وإذا التفتنا إلى أوائل عقيدة بنى إسماعيل نرى أن إسماعيل كان يوحد الله مع أبيه إبراهيم ، ثم تسكت الروايات

(١) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس الاصحاح الخامس عدد (١٩) .

(٢) The origin of Islam in its Christien environment by R. Bell P. 17. (٢)

عن ذكر الفترة التي كانت بين وفاة إسماعيل وظهور عمرو بن مضاض الجرهمي ،
ويذكر الرواة أن^(١) عمرو بن مضاض هذا كان يعظ الناس ويمنعهم عن الظلم
والمعصية في البلد الحرام ، ويذكرهم بعذاب الأم التي أهلكها الله تعالى . ثم نجد
بنى عدنان الذين كانوا يرحلون من واد إلى واد آخر في ارتجاع الكلاً ، وكانوا
يعبدون أحجار الكعبة وأشجارها . ثم نرى عمرو بن لحي وقد نصب الأصنام
حول الكعبة . وظل الناس في عبادة الأوثان مدة طويلة ، وسموا عبد هبل
وعبد العزى وزيد اللات ، فلما اتصلوا باليهود والنصارى وتأثروا بعقائدهم وتقاليدهم
اعتقدوا في الله اعتقاد اليهود وخططوا وثنتهم باليهودية ، فكان لكل قبيلة عربية
صنم يعبدونه ويحلفون به ، وهو ربهم الخصوص كرب قريش ورب ربيعة
ورب الشعري ، واللات والعزى ، وكان له بنات مثل إله اليهود . والمحتمل أن
لفظ الله أصبح لقباً من الألقاب الإلهية المقدسة في تصور العرب ، وأخذ يطلق
على كل فرد من تلك الأصنام ، فكان^(٢) يراد بالله تارة « هبل » على تعبير
ولهوسن (Wellhausen) ، وتارة ود ، وفق الصنم الذي تنتمي إليه القبيلة .
وهناك دليل من أسطورة عربية^(٣) « لما هدموا الكعبة وبلغوا أساس إبراهيم
وجدوا في حجر من الأساس كتاباً فدعوا له رجلاً من أهل اليمن وآخر من
الرهبان فإذا فيه : « أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السموات والأرض
والشمس والقمر ، ويوم صنعت هذين الجبلين وحفقتما بسبعة أملاك حنفاء »^(٤)
فلو لم يكن الله صنماً في تصور العرب فمن كان الله ذو بكة هذا ؟ . ودليل
آخر^(٥) « قال الزبير بن العوام لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان ، قد كسر

(١) أخبار مكة للأزرقي « باب ما جاء في مسألة إبراهيم وبناء الكعبة » .

(٢) Encyclopedia of Ethic & Religion. "Arabs".

(٣) أخبار مكة ص ٣٧ .

(٤) أخبار مكة ص ٧١ « باب ما جاء في أول من نصب الأصنام » .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٢ . (٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٢ .

(۳) » » » » (۴) كتاب الأصنام وديوانه ص ۱۷ .

شيئاً قالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب » فهم لم يفهموا التوحيد إلا أنه جعل الآلهة إلهاً واحداً — نعم لقد وجدت فيهم رجال موحدون مثل ورقة ابن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل الذي قال :

أرب واحداً أو ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور^(١)

إلا أن أكثرهم إما تنصروا أو تهود ، وهذا لا يمكن إلا إذا عرفوا العقائد اليهودية أو النصرانية قبل ترك دينهم . ومن يعرف ما كان هذا الرب عندهم أ كان ملك الظلام مثلما كان عند اليهود أو حلول الله في عيسى ابن مريم ، وقد بدأت عبادة الرجل في الزبرقان بن بدر وغيره^(٢) ، فهذه الوجدانية لا تزيد عن وجدانية اليهود والنصارى .

وخلاصة القول أن العقلية العربية حين ظهور الإسلام كانت عاجزة عن فهم الإله الواحد ، فعلمهم النبي معنى التوحيد وأسلوب تفهم صفاته ، فالتوحيد شيء وتفضيل صنم منهم على آخر شيء آخر ، لأن التفضيل عند الوثنيين كان تتبع سلطة القبيلة التي تغلب ربها على سواها ، كما نرى في إله أشور وإله مردوخ ونحو ذلك . فالعقلية العربية كانت ضالة في تعدد الآلهة ، إلى أن نبههم الله تعالى بقوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . ومن ميزات التوحيد أن يندمج آلهة القبائل والأقاليم في رب الأرباب وإله الأمة ، وتصير صفاتهم صفته ، كما صار إله أشور وإله الآشوريين جميعاً . ومن ميزات أيضاً أن عقلية الأمة لا تقبل الشركاء في تدير الكائنات مع الله ، ونحن لا نجد أثراً من تلك الميزات في الوثنية العربية — إذ كان لكل قبيلة إله مخصوص تعبدته وتحلف به ، كرب قريش ورب ربيعة ولم يكن بين هذه الأرباب علاقة الحاكم والمحكوم ، ولو أصبحت علاقة

(١) أغاني ج ٣ ص ١٢٥ . (٢) أديان العرب لنعمان الجارم « عبادة العرب للانسان » .

الأبوة من هبل واللات والعزى تحت تأثير اليهود والنصارى ، ولكن الآلهة كانت مقدسة ومحترمة عند كل قبيلة بلا امتياز فكان قريش يعظمون هبل ، كما كانوا يقدسون اللات ومناة والعزى ، ولم تتخذ هذه الأرباب فيما بينهم علاقة الحكم والإدارة ، وذلك لا يمكن في القبائل التي كانت الحروب تسود فيها ، وكذلك كانوا يجعلون لله شريكا وأندادا ، فإذا جلسوا ليقسموا أنعامهم وأسلاب حروبهم قسموه بين الله وبين عم أنس وعميانس ، وما دخل في حق الله من حق عميانس ردوه عليه ، وما دخل في حق الصنم من حق الله تركوه له^(١) . وهذا يخالف أيضاً ميزات التوحيد . ولكن نجد في أقسام العرب أنهم كانوا يحلفون برب الشمس والقمر ، ورب النور والظلام ، وكان من أيمانهم^(٢) : « لا ومجرى الرياح ، ولا ومميت الرياح ، لا ومنشىء السحاب ، لا والذي أخرج الماء من الحجر والنار من الشجر^(٣) » ؛ فبعد ما عرفنا عقلية الأمة العربية وعقيدتها المتمثلة في قولهم : « وما يهلكنا إلا الدهر » نستطيع أن نفهم ما كانوا يريدون « بوالذى نفسى بيده » ، ورب النور والظلام (والشمس) ، وبمنشىء السحاب (مطرنا بنوء كذا) ، وبمجرى الرياح ومميتها^(٤) . لكن لا نستطيع أن نزع ما كانوا يقصدون « بوالذى شق الرجال للخيول والجبال للسيل » ، « ويباعث الأرواح »^(٥) . وذلك لأن كثيراً من أساطير العرب التي كانت تتعلق بتلك المعانى أصبحت نسيا منسيا ، أو قل كان العربى يشعر أحياناً بخالق الإنسان وباعث الأرواح ، وكان يلتفت إليه أحياناً ، وكان يشير إليه بالذى عمل كذا وكذا ، فقد يكون هذا من تراث إبراهيم وإسماعيل ، وقد يكون من وظيفة

(١) كتاب الأصنام ص ٤٣ .

(٢) إيمان العرب في الجاهلية لأبى اسحاق إبراهيم بن عبد الله .

(٣) أخبار مكة . (٤) إيمان العرب في الجاهلية .

الضمير الذي فطر عليه الإنسان ، لكنه لم يثمر ولم يخلف أثراً في حياة العرب الاجتماعية قبل ظهور الإسلام .

من هذا البحث نستنتج أن طبيعة البلاد العربية لم تدع إلى نشوء فكرة التوحيد ، وأن وحدانية اليهود والنصارى أيضاً لم تكن أكثر من وثنية العرب ، فالعرب لم يتأثروا باليهودية والمسيحية في فكرة التوحيد ، بل تأثروا بفلسفتهم الوثنية إلى حد ما ، ونهتدى منه إلى أن تقول إن الإسلام لم يتطور من درجة إلى درجة ، ولا وحدانيته مأخوذة من اليهود أو النصارى ، بل نشأ مستقلاً بذاته ، فإنه الإسلام رب العالمين ، وليس رب قريش فقط ، وهو خالق الأرض والسماء وما فيهما ، ولم يغير وحدانيته تفلسف الفلاسفة كما تغيرت اليهودية والمسيحية بفلسفة الحلول والتقمص والتثليث . وهو « ليس كمثل شيء » ، وهو حي قيوم « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، بخلاف العقيدة اليهودية في تناسله ، وإله الإسلام « أحد ، صمد ، لم يلد ولم يولد » ، بخلاف إله النصارى ، وهو الإله الذي لا يشفع عنده « إلا بإذنه » بخلاف النصارى الذين يعتقدون في كفارة المسيح ، فأين إله العرب الجاهلية وأين : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم » .

الفصل السابع

أسطورة الخلق والحياة بعد الممات

قال الله تعالى في شأن أهل مكة : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » وكذلك ورد في شأنهم أيضاً : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . فبإزاء هاتين الآيتين لا أستطيع أن أقول من هو الله الذي أراد به أهل مكة أنه خالق الأرض والسموات ، إذ كان الدهر هو المهلك والدنيا هي الحياة في عقيدتهم . لكن الزواة ذكروا أن العرب كانوا منقسمين طوائف متعددة ، منهم من أنكر الخالق ، ومنهم من أقر به وأنكر البعث . أما التوراة فتقول إن بني إسرائيل ظهروا وهم يعتقدون بالإله الواحد القهار خالق السموات والأرض ، وهكذا روت العرب عن بني إسماعيل حينما افترقوا عن إخوانهم ، فليس يبعد أن بني إسماعيل اعتقدوا في وجود الله الواحد كاعتقاد إخوانهم الآخرين ، لكنهم لم يستمروا على هذه العقيدة ، بل ظنوا في الله أنه كالأصنام الأخرى — كما بينا سالفاً — فكان بنو إسماعيل — كما تذكر الروايات يتصورون الله في صورة الرجل الذي يخلق السماء والأرض والشمس بطريقة لا نعرفها ؛ لكن الطريقة كانت معروفة عند اليهود ، الذين كانوا يعتقدون أن الله فرغ من صنع الكائنات في ستة أيام ، واستراح يوم السبت ، وأخيراً خلق الإنسان وشكله على صورته كما يشكل صانع الفخار فخاره ثم نفخ فيه روحاً ، أما فكرة هبوط آدم فهي عقيدة إسرائيلية ، ولم تكن موجودة عند البابليين الذين كانوا يصورون الإله الخالق وهو يحارب التنين الأسود (رمز

الظلام) ويقتله، ثم يشطر جثته شطرين، يتخذ أحدهما حاجزاً يمنع به المياه العليا من السقوط ويسمى تيامات. وقالوا «كان في بدء العالم ماء ثم خطر لمردوخ الإله الأعظم أن يخلق الإنسان من دمه وعظمه ليسكن الأرض ويعمرها»^(١) أما بنو إسماعيل فكانوا يعتقدون (في عصور متأخرة) في الخلق مثل البابليين الذين اعتبروا الماء أقدم الكائنات، ويظهر هذا من قول كعب الأحبار الذي قال: «كانت الكعبة غطاء على الماء قبل أن يخلق الله تعالى السموات والأرض بأربعين سنة، ومنها دحيت الأرض»^(٢) لكن التاريخ لم يذكر عنه شيئاً، وكل ما عرفناه في هذا الصدد فهو أخبار متأخرة، وكثير منها لفق على يد كعب الأحبار الذي كان يريد إدخال العقيدة اليهودية في الإسلام تحت ستار قول ابن عباس^(٣)؛ وكذلك وهب بن منبه، وعبيد بن شريّة اللذان كانا يذيعان الأفكار البابلية والفارسية في الحجاز. فانظر إلى أسطورة الخلق هذه: «إن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء، ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع منه زبد ودخان وبخار، وأرعد من خشية الله، فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة» وبعد ما نترك قصة خالق السموات والأرض هذه المختلطة بنظريات المذاهب المختلفة نجد: «ثم بعث الله تعالى من تحت البرش ملكاً فهبط تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه، وإحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب باسطين فابستين على قرار الأرضين السبع، حتى ضبطها، فلم يكن إقدامه موضع قرار، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن، وأربعون ألف فائمة، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه، فأحدر الله ياقوته

(١) Seven Tablets of Creation.

(٢) أخبار مكة ص ١ .

(٣) قصص الأنبياء ص ١٨ .

خضراء من أعلى درجة الفردوس ، غلظها مسيرة خمسمائة عام ، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماء ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار هذه الأرض وهي كالحسكة تحت العرش ؟ ومنخر ذلك الثور في البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفساً ، فإذا تنفس مد البحر ، وإذا رد نفسه جزر ، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله تعالى صخرة خضراء ، غلظها كغلاظ سبع سموات وسبع أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها فلم يكن للصخرة مسنقر فخلق الله تعالى نوناً ، وهو الحوت العظيم اسمه لوتيا وكنيته بلهوت ، ولقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال ، فال والحوت على البحر^(١) .

فإذا طرحنا من أسطورة الخلق العربية النظريات البابلية مثل كون الماء مبدأ الكائنات ، ومثل العدد السبع الذي كان مقدساً عند البابليين ، وشبه عقيدة يهودية كقول : « بعث الله تعالى من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض » لبقى من الأسطورة استقرار كرة الأرض على تلك الأشياء المتعددة ، وهذه كما أرى أسطورة عربية خالصة ؛ لأن العقاية العربية كما بينا لا تستطيع أن تتصور جوهراً مجرداً عن المادة في التكوين ، لذلك حينما وصلت فكرة الخلق البابلية والإسرائيلية إلى العرب رأوا أنه يجب أن يكون تحت الأرض ذات السبع طبقات شيء مادي تستقر عليه ، فذهب بهم الظن إلى أن يجعلوا الثور حامل الأرض على عاتقه ، وجعلوا تحت الثور صخرة خضراء ، وكان موضع قرار تلك الصخرة الحوت العظيم وهو بدوره كان على البحر الذي يتصوره العرب شيئاً عظيماً . ومما يؤكد أن استقرار الأرض على أشياء هو فكرة عربية ، أننا نرى الله سبحانه وتعالى ، ينبه العرب إلى ما كانوا يعجبون منه حينما يقول : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها^(٢) » .

كذلك كان من أساطير كعب الأحبار : « أن إبليس تغفل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض فوسوس إليه ، وقال له : أتدرى ما على ظهرك يا لوتيا من الأم والدواب والشجر والجبال وغيرها ، لو تقضتها أو ألقيتها عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك ، قال : فهم لوتيا أن يفعل ذلك » ^(١) . فما هذا إلا تعليل الزلزلة الذى تصوره ^(٢) وهب أيضاً فقال : « إن ذا القرنين أتى على جبل قاف فرأى حوله جبلاً أصغاراً ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا قاف ، قال : فأخبرنى ما هذه الجبال التى حولك ، فقال : هى عروقي ، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أمرنى فحركت عروقي فترزلت الأرض المتصلة به » فهذه الروايات ومثلها تهدينا إلى أن الفكرة العربية — سواء كانت حديثة أو قديمة — تنتج دائماً من التعليل المادى الخالص . وهناك خرافة أخرى ، قال الربيع بن أنس : « إن سماء الدنيا موج مكفوف والثانية من صخرة ، والثالثة من حديد ، والرابعة من نحاس ، والخامسة من فضة ، والسادسة من ذهب ، والسابعة من ياقوتة بيضاء ، وكانت الكواكب معلقة من السماء كالقناديل » ^(٣) وقس على ذلك أن الإنسان أيضاً عند العرب لم يخلق من دم الإله كما خلق منه عند البابليين ، ولا هبط آدم من الجنة كما قالت اليهود ، بل خلق من الأرض ذات نفسها ، فكانت فكرة أمومة الأرض معروفة وشائعة عند العرب ، كما كانت منتشرة عند الأمم جميعاً .

قال أمية بن أبي الصلت :

والأرض معقنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد
وكذلك ^(٤) سئل يحيى بن معاذ الرازى . أن ابن آدم يدري أن الدنيا
ليست بدار قرار فلم يطمئن إليها ؟ قال : لأنه منها خلق ، فهى أمه ، وفيها نشأ

(٢) قصص الأنبياء ص ٥ .

(٤) « ١٢ » .

(١) قصص الأنبياء ص ٥ .

(٣) « » .

فهي عشه ، ومنها رزق ، فهي عيشه ، وإليها يعود^(١) فهي كفاته^(٢) ويؤيد هذا ما قيل في خلق العظاءة (سام أبرص) أنها تسمى شحمة الأرض أو شحمة الرمل ، وهي أنواع كثيرة منها الأحمر والأصفر والأخضر ، وكلها منقطة بالسواد ، وهذه الألوان بحسب مساكنها . وكذلك ذكروا عن الواق والدوال أنهما نتاج ما^(٣) بين بعض النبات والحيوان . وقالوا في خلق الجن إنها خلق من بيض متعدد — كما ذكرنا في باب الطوتى — كل هذا يدل على أنهم كانوا يرجعون خلق كل شيء إلى الأرض ، فكانت الأرض كفاته كما كانت أمه .

يجب بعد هذا أن نرى ماذا كانت عقيدة العرب في الحياة بعد المات ، لم يكن الإنسان حرا فيما يفعل وفيما يترك ، إنما هو آلة مجبرة على السير في طريق رسمها له الدهر كما رسمها للأشجار والأحجار والكواكب وسائر أنواع الكائنات . وكذلك الخلود لم يكن بقاء روحانيا عند العرب كما ورد في تفسير الآية : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » ؛ فإنه فسر معنى نحيا بقوله : « إننا نموت ونحيا بأعقابنا »^(٤) . ووجد الباحثون في قرية حوران الخاتم الذى تدل نقوشه على أن البهائم كانت تساق إلى الأموات للأكل منها . ومثل هذا نراه في تقاليد العرب الذين كانوا يعقرون الإبل ويلقون البلية على القبور ، وهذا كما أرى لم يكن مكافأة أو مخافة من أرواح الأسلاف كما قيل ، بل كانوا يذبحونها عبثا لأعقابهم واحتفاظاً لتقاليدهم في فضيلة المروءة التى كانت أساس حياتهم الاجتماعية ، وأما ما ذكر في العادات القديمة من القول بأن من مات ولم يبل ما عليه حشر ماشيا ، ومن كانت له بلية حشرا كبا ، فإنه لا يتفق مع عقلية البداوة ، وليس هو من مبادئ عقائد الأمة السامية بأجمعها ، لذلك كان

(١) الحيوان للدميرى ص ٩٨ .

(٢) الحيوان للجاحظ ص ٨٧ .

(٣) تفسير الطبرى .

(٤) Religion of Palestine P. 35.

هذا القول فكرة دخيلة في العادات العربية القديمة ، أو هو من صناعة الرواة المتأخرين الذين كانوا ذوى أغراض .

ودليل آخر على ذلك أن بابل ، وهى أقدم الأمم حضارة في بلاد العرب على الأقل لم تفكر في الحياة بعد المات ، وهناك نقش آرامى من القرن الثامن وجد في إقليم زنجير لى في شمال الشام ، وهويبين أن الأموات كانوا يأكلون ويشربون أمام آلهتهم^(١) ، وكان اليمينيون يدفنون تمثالا مع كل ميت في قبره ، وكانوا يكتبون على ذلك التمثال نسب الميت وأمانيه ، كما قال الهمداني في الإكليل : « ووجد رسم آخر فيه أن الشخص الذى يحمل في يده إبريقاً يسقى منه العطشان »^(٢) . وهكذا كان العرب يتصورون أن الهامة التى تخرج من رأس الميت تقول : أسقونى ، أسقونى ؛ ولذلك قال كوك : « حقا إن هناك إبهاما وسقما وغموضا في العالم الآخر عند الساميين » .

“There is certain gloom, morbidity & absence of other world liners among Semites.”

والواقع أن العرب كانوا يقولون : « إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا »^(٣) « وقالوا إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون »^(٤) وقالوا أيضاً « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »^(٥)

هذا مبلغ العقلية العربية قبيل الإسلام فلما جاء الإسلام قال : « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، فهدم بهذا المذهب الحيوى ، وغير النبی أسماء أصحابه الحيوانية (مفقوض المذهب الطومى) ، ومنعت الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها (فأزال الوثنية) وعلمهم النبي : « قل هو الله أحد ، الله الصمد

٧

Religion of Palestine P. 37. (١)

Religion of Palestine P. 39. Religion of Palestine P. 36 Foot note. (٢)

(٣) سورة الاسراء . (٤) سورة الصافات . (٥) سورة المؤمنون .

